قراءة في دراسات د/ صبحي حنا

لكتاب"جماعات الغجر"

مع إشارة خاصة للغجر في مصر والبلاد العربية


سلسلة علم الاجتماع المعاصر
(الكتاب الثاني والثلاثون)

جماعات الغجر
مع إشارة خاصة للغجر في مصر والبلاد العربية

تأليف
دكتور نبيل صبحي حنا
مدرس علم الاجتماع والأنثروبولوجيا
بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
١٩٨٠

دار المعارف

تأليف: صبري نبيل صبحي حنا.

مدرس علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

الناشر: دار المعارف.

الطبعة الأولى.

١٩٨٠م.

قدم هذا العرض "لبيت الجغرافيا": حسن أسامة وراجع العرض: عاطف معتمد



المقدمة:

قدم الكاتب هذه الدراسة الفريدة عن "الغجر" لمحو الأوهام والتخيلات التي تنتاب عقولنا حول هذه الجماعات، فكل معلوماتنا عن الغجر بعيدة عن الحقيقة وصلابتها؛ ولذلك اهتم المؤلف بالتجسيد الحي لاتجاه جديد في الدراسات الأنثروبولوجية العربية يركز على دراسة الجماعات الهامشية في المجتمع العربي من خلال دراسات واطلاع استمرت ست سنوات، ولا يتوقف الكتاب على الغجر في المجتمع العربي فقط، بل أعطى نظرة جيدة لتنوع الغجر في العالم، ورأي الباحثين المهتمين في هذا الموضوع، ويتألف الكتاب من أربعة أبواب عبر ٤٤٠ صفحة:

الباب الأول: دراسة الغجر.

الفصل الأول: الغجر كموضوع للدراسة العلمية

الفصل الثاني: المنهج وطرق البحث الميداني في دراسة الغجر

الباب الثاني: جماعات الغجر في العالم

الفصل الأول: من هم الغجر؟

الفصل الثاني: التاريخ والاضطهاد

الفصل الثالث: الغجر ومصر.

الباب الثالث: الحياة الاجتماعية والثقافية للغجر.

الفصل الأول: بعض ملامح الحياة الاجتماعية للغجر

الفصل الثاني: البناء والعلاقات في جماعة غجرية (غجر فلادلفيا)

الفصل الثالث: فولكلور الغجر.

الباب الرابع: الغجر في مصر والبلاد العربية.

الفصل الأول: الغجر في البلاد العربية

الفصل الثاني: الغجر في مصر.



الباب الأول

"دراسة الغجر"

الفصل الأول: الغجر كموضوع للدراسة العلمية

أولًا – غجر العالم في ميدان الدراسة:

يتوفر عدد كبير من الكتب الخاصة بالغجر في مكتبات العالم الأجنبي، إذ صدرت آلاف المراجع عن جماعات الغجر سواء كانت متخصصة أو غير متخصصة. فقد عرضت دوائر المعارف العالمية السمات العامة التي يتميز بها الغجر، مثل دائرة المعارف البريطانية التي عرضت عدة جماعات وأسمائهم وتاريخهم والمهن التي يشغلون بها، وقامت دائرة المعراف الأمريكية أيضًا بعرض الأسماء التي تطلق على الجماعات في العالم ونمط إقامته والمآكل والملبس والدين والمحرمات والفولكلور.

بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من المقالات والكتب التي خصصت لدراسة الغجر بصفة أساسية، فقد عرض جورج بلاك في ببليوجرافيتة الصادرة سنة ١٩١٤م، من ثم أدى الاهتمام الكبير بهذه الجماعات إلى إنشاء ثلاث دوريات خاصة بدراسات الغجر: الدورية الإنجليزية عام ١٨٨٨م، الدورية الفرنسية في عام ١٩٥٥م، الدورية الهندية. ومن الجانب العربي الذي تناول هذا الموضوع كتاب "شلش" الذي اختص بهذا الموضوع، كما قدمت مجلة "العربي" مقالًا يتضمن تعريف الغجر وأصولهم وبعض عادتهم بعد ان طلب أحد القراء هذا الطلب، وكذلك مجلة التراث الشعبي العراقية جزءًا عن حياة الغجر في بنجلاديش ورصد أن أهم مهنة لديهم هي "اللعب بالأفاعي"، كما نشر لطفي الخوري مجموعة من المقالات المترجمة في نفس الموضوع ونُشرت في نفس المجلة. ومعظم ما صدر باللغة العربية عن هذه الجماعات هي أعمال مترجمة.

ولكن هناك الكثير من الانتقادات التي وُجهت إلى معظم هذه المؤلفات. ولعل أهمها النقد الذي وجهه ماكريتشي في عام ١٨٨٦م، أنه على الرغم من أنه هناك أربعمائة كتاب عن الغجر، إلا أنه لا يوجد من بينها أكثر من عشرة كتب تعطينا شيئًا جديدًا عنهم، فالكتب الأخرى تتميز بالتكرار الشديد، وعلاوة على ذلك أن بعض الكتاب قد بالغوا في وصف حياة الغجر إذ وصفوها حسب التصورات النمطية التي كانت سائدة، فبعضهم يرى أن للغجر موقفا بطوليا إذ أنهم قنعوا في العيش على هامش التاريخ، ومن أمثلة بعض التصورات الأخرى ما كتبه هيرين الذي وضع تراجيديا الغجري، فقد اعتبر الغجري في بعض الأحيان حيوان صيد، ومرة أخرى أنه كلب ينبح،



ويقول "أنجولد" أن الذين تكلموا عن الغجري لم يحاولوا ولو مرة واحدة القيام بزيارته، لذلك آراؤهم مجرد ترديد للفكرة القديمة عن السكان الأصليين.

وأهم الانتقادات التي وُجهت لهذه الكتابات أن كثير منها لم يتسم بالطابع العلمي. وقد أشارت "آن سذرلاند" إلى أنه رغم كثرة ما كُتب عن الجماعات الغجرية إلا أنه يوجد ندرة في التحليلات السوسيولوجية، بالإضافة إلى وجود جذور للخرافات التي تنتشر بين الناس عن الطابع الغجري، من أهم الانتقادات المبالغة الكبيرة في هذه الكتابات عن أعداد الغجر فقد نشرت الموسوعة العربية أن الغجر شعب تجوال تعداده أكثر من مليون نسمة، وهذا رقم مبالغ فيه حيث أن الأعداد التي تم نشرها عن الغجر غير صحيحة وغير مُقربة أيضًا.

ثانيًا: أهم الدراسات العلمية

توماس أكتون: سياسة الغجر والتغير الاجتماعي

توماس أكتون سوسيولوجي تخرج من جامعة أكسفورد وحصل على الدكتوراه من نفس الجامعة بعد أن قدم دراسة عن الغجر، وارتبط بالعمل في مجلس الغجر عام ١٩٦٨م، ويحاول أكتون في دراسته أن يصف التغيرات التي حدثت في مركز الغجر في بريطانيا في الثمانين عام السابقة على صدور دراسته، ويعتبر أن هناك تحولًا كبيرًا في سياسة الحكومة تجاه الغجر في الثمانينات من القرن التاسع عشر والستينات من القرن العشرين. ويحاول أن ينظر إلى هذه التغيرات من خلال تحليله للتصور السائد عن الغجر الحقيقي. والحدثين اللذين اختارهما ليحدد فترة الدراسة الزمنية هما، قانون المساكن المتنقلة في ثمانينات القرن التاسع عشر، وطلب الغجر لتكوين وطن غجري يسمى Romanestran، فبعد أن كانوا يعيشون مهضومي الحقوق أصبحوا قادرين بدرجة أكبر على تحديد مصيرهم

وأوضح أكتون في دراسته في القسم المتعلق بالاقتصاد أن بدوية الغجر ليست من قبيل عدم التعقل كما أنها ليست فريدة، إذ ورد أمثلة لأنماط اقتصادية مماثلة في مجتمعات غير أوروبية فهناك مليونان غجري هندي يعيشون "الحياة الغجرية" ، وقد أوضح أكتون في هذه الدراسة أنه لا يوجد تعريف لكلمة غجر يلقى قبولًا عالميًا، وأكبر خطأ وقعت فيه الدراسات الرسمية والأكاديمية على السواء هو المبالغة في التعميم نتيجة لاعتقاد البعض أن الممارسات التي وجدت عند بعض جماعات الغجر هي ممارسات عامة، وأن أية جماعة لا توجد لديها هذه الممارسات لا تعتبر جماعة غجرية.

دراسة "آن سذرلاند":



بدأت دراسة سذرلاند في عام ١٩٦٨م واستمرت عامين قامت فيها باتصال مباشر بالجماعة (Rom) روم التي تعيش على الشاطئ الغربي لأمريكا. وتعتبر هذه الدراسة من أقوى الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت على الغجر. فقد اهتمت سذرلاند بدراسة التنظيم الاجتماعي لهذه الجماعة، وعلاقتها مع المجتمع الخارجي. كما اهتمت بالمعتقدات الخاصة بالطهارة والنجاسة، وقد نهجت منهجًا خاصًا في دراستها، فاختارات اسمًا وهميًا للجماعة المدروسة، وأسماء وهمية للأفراد الذين تعاملت معهم. وذلك صونًا لأسرار هذه الجماعة، كما حذرت أي قارئ من محاولة التعرف على شخصية أي غجري من خلال ما كتب عنهم أو ما ذكر من أسماء.

ولقد اختلفت طريقة سذرلاند في دراستها عن دراسات أخرى أجريت على الغجر لم تقدم تحليلًا سوسيولوجيًا بل قدمت تصورًا عن الطابع الغجري كما يراه غير الغجر. ويكمن وجه الاختلاف في أن سذرلاند حاولت أن تتعامل مع جماعتها، وأن تنظر إلى مجتمعها كمجتمع بشري سوي له حياة اجتماعية متكاملة يمكن فهمها وإدراكها وتحليلها سوسيولوجيًا. والطريقة التي اتبعتها سذرلاند في تحليلها للجماعة موضوع الدراسة هي أنها ركزت على التصنيفات التي يصنف بها الغجر الأفراد على أنهم ينتمون إلى فئات اجتماعية، وحاولت تحليل الفئات الاجتماعية التي تنقسم إليها الجماعة الغجرية. فقد أوضحت أن الكومبانيا (اسم يطلقه الغجر في أمريكا على مجموعة العائلات الغجرية التي تعيش معًا في إقليم معين، وتشارك في عملية الاحتكار الاقتصادي للإقليم الذي تشغله، وتتعاون هذه الأسر مع بعضها في المجال الاقتصادي) هي ذلك الإطار الذي يحدث فيه الفعل الاجتماعي. وهي أكثر الوحدات الاجتماعية مرونة. فالغجري كعضو في الكومبانيا يترجم الفئات الاجتماعية إلى سلوك وإلى معتقدات تعطي معنى لحياتهم .

كما وجدت سذرلاند أن الشكل الاجتماعي والفعل الاجتماعي يرتبطان أساسًا بالمعتقد المتعلق بفئات الطهارة والنجاسة. وأن هذه المعتقدات لا تعد خرافات كما اعتقد بعض الكتاب، إذ أنها تشكل نسقًا لمعنى السلوك داخل المجتمع الغجري وخارجه الذي يتمثل في السلوك. ما أبدت أن الطهارة والنجاسة بتصنيفاتها المختلفة تلعب دورًا هامًا في مجالين من البناء الاجتماعي:

١. هذه التصنيفات هي المفاهيم التي تعتبر مدخلًا أو مفتاحًا لترجمة البناء إلى فعل، ولفهم الطريقة التي يرتبط الفعل فيها بالبناء.
٢. أن تصنيف النجاسة إلى فئات هو لغة الحدود الاجتماعية، وهذا يتضمن تقسيمات اجتماعية أساسها الجنس والسن.



وتعلق سذرلاند على جماعة الروم كجماعة إثنولوجية في أمريكا. فتذكر أنها ترى أن تاريخ الغجر هو توثيق لاستمرار حياة جماعة من الناس تعيش في مجتمع ليس مجتمعها. لهذا فهم في نظر كثير من الثقافات جماعة منبوذة. وقد أثر مركزهم داخل ثقافة المجتمع الأوسع نطاقًا والذين يعيشون فيه على تنظيمهم الاجتماعي. فقد أدى هذا المركز إلى فرض حدود بين ما هو غجري وبين ما هو غير غجري. ففي المجتمع الأمريكي حيث أن الغجر غير معروفين أو أن وجودهم مشكوك فيه من غير الغجر، فهم لا يواجهون الصعوبات التي يواجهها الغجر في أوروبا نتيجة لاعتبارهم جماعة منبوذة.

وتقارن سذرلاند بين وضعية ومشكلات غجر أمريكا وبين جماعات إنثولوجية أخرى في أمريكا من حيث الامتيازات التي تتمتع بها الجماعة الغجرية والمساوئ التي تشوبها، وقد صدرت هذه الدراسة في كتاب بعنوان "الغجر".

دراسات جروم:

يعتبر فرانسيس جروم من أهم الكتاب الذين كتبوا عن الغجر نتيجة للاختلاط والتحدث معهم. وقد كتب كثيرًا عن الغجر مما يعتبر قيمة كبيرة بالنسبة للدراسات الاثنولوجية، وتبع جروم كثير من العلماء والباحثين، وهو يعتبر عالمًا فولكلوريًا من الطراز الأول اهتم بفولكلور الغجر.

دراسة كوكر "لغجر فيلادلفيا":

تعد دراسة جويلان كوكر عن غجر فيلادلفيا سنة ١٩٦٦م من أهم الدراسات التي تمت في هذا المجال، إذ تناول كوكر موضوع التنظيم الاجتماعي لغجر أمريكا بطريقة علمية، فقد ارتكزت هذه الدراسة على المعلومات المستقاة من عمل ميداني قام به بشكل متصل من عام ١٩٦١م حتى عام ١٩٦٤م، وتناول في هذا العمل شرح الأساس البنائي في تكوين الأسرة، والطقوس والعلاقات داخل الأسرة، واللغة.

دراسة كوهن المقارنة للمصطلحات الغجرية وغير الغجرية:

قارن فيرنر كوهن في مقالة صدرت عن الغجر بين البناء اللغوي والألفاظ المتعلقة بمصطلحات القرابة لدى بعض غجر شمال أمريكا والألفاظ المماثلة للانجليز الذين يقطنون شمال أمريكا. ووجد أنه على الرغم من تشابه اللغتين إلا أن هناك اختلافات هامة، خاصة في مصطلحات القرابة. وقد أوضح أن المصطلحات ترتبط بالاختلافات الثقافية، وأنه يمكن ملاحظتها من خلال دراسة نظام الغجر في مهر العروس.



الجماعات الرحل في اسكتلنده: المشكلات والحلول

قام مكتب البحوث بقسم التنمية الاسكتلندي بإجراء دراسة على جماعات غجر اسكتلنده وصدرت نتائج هذه الدراسة في صورة تقرير يوضح طبيعة جماعة أو أقلية تعيش في وسط سكان اسكتلنده، كما يعرض لمشكلاتها مع توصية بالحلول الممكنة لمثل هذه المشكلات. ومن أهم الجوانب التي اهتمت بها الدراسة جانب العلاقات بين الجماعة وبين بقية سكان اسكتلنده. وقد أدى نمط حياتهم إلى الخوض في ألوان من الصراع ليس مع السلطات فقط بل مع السكان أيضًا. والتقرير يقدم بعض الحلول المقترحة لتحقيق تكامل الغجر مع المجتمع وهدف الحلول المقترحة هو خلق بيئة يمكن بداخلها للغجر أن يحققوا مساواة في المكانة مع المجتمع المحلي. وهذا يعني الاكتفاء بتمكنهم من كسب العيش بالوسائل التي يرضون عنها فقط، ولكن تمكينهم من الحصول على نصيب مساو في مختلف جوانب الحياة في المجتمع المحلي، واقترح التقرير خطتين الأولى تهدف إلى توفير أماكن يسكن فيها الغجر بطريقة مشروعة ، والثانية تهدف لحل مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية ويُعتقد أن هذا الحل سيستغرق جيلين أو ثلاثة على حسب مدى النجاح في الخطة الأولى.

الفصل الثاني

المنهج وطرق البحث الميداني في دراسة الغجر

إن اغلب الدارسين يبدأون الدراسة من فراغ، بمعنى أنه لا تكون لديهم دراية مسبقة بالغجر، فإن أول ما يجب على الدارس فعله هو أن يقرأ الكثير عنهم. وإذا لم تكن هناك دراسات متوفرة عن غجر المنطقة التي يقوم الشخص بدراستها أو غجر البلد التي يعيش فيها، فإن قراءته عن الغجر بصفة عامة سوف تطلعه على الطابع العام لهذه الجماعات التي تتشابه في الكثير من خصائصها في المناطق المتباعدة. على أنه يجب على الباحث ألا يتسرع ويفسر التشابهات تفسيرات سطحية، أو يحاول استنتاج وجود علاقات بين جماعات الغجر لمجرد وجود تشابهات، كما يحتاج الدارس أيضًا إلى أن يكون على دراية بالبيئة المحيطة بالغجر (المجتمع الذي يعيش فيه الغجر)، فلا يحاول دراستهم في عزلة عن المناخ الاجتماعي الذي يعيشون فيه.

ونود أن نشير أيضًا إلى أن اختيار الباحث لجماعة يقوم بدراستها دون التعرف على الجماعات المختلفة التي توجد في نطاق دولة أو مجتمع معين يعتبر من قبيل العشوائية غير المستخدمة في موضعها المناسب، فاختيار جماعة دون معرفة بقية الجماعات يضيع فرصة الاختيار الأفضل الذي يمكن أن يحدث في حالة التعرف على أكثر من جماعة.



ونظرًا لعدم توفر دراسات عن معظم جماعات الغجر فإن مهمة االباحث تصبح شاقة، وتحتاج إلى جهد كبير لكي يتعرف على الجماعات الموجودة في نطاق مجتمعه. وغالبًا ما يكون هذا الجهد ميدانيًا يتطلب من الباحث القيام برحلات إلى مناطق مختلفة لكي يتمكن من تكوين صورة عامة عن الجماعات المتباينة.

نوعية الدراسات المطلوبة:

نحن في حاجة إلى دراسة مسحية شاملة، ودراسات مركزة.

١. دراسات مسحية شاملة:

وهي تلك التي تجري على الغجر في مجتمع معين وتهدف إلى التعرف على مختلف جماعات الغجر فيه، والتعرف على طبيعة وجودها، وتهدف إلى معرفة نوعية هذه الجماعات والفروق الأساسية بينها وأهم السمات التي تميز كل منها، وتهدف إلى معرفة أحجام التجمعات سواء كانت أسر متناثرة أو جماعات صغيرة أو مجتمعات محلية.

ويتم التعرف على المناطق والجماعات المشار إليها عن طريق سؤال أشخاص كثيرين ممن يمكن للباحث الاتصال بهم من دارسين وغيرهم عن أية أماكن يمكن أن يتواجد بها الغجر. وذلك في حالة عدم وجود أي تقرير علمي يحدد وجودهم وأماكن تجمعاتهم الأساسية. ومن الملاحظ أن المعلومات في البداية تؤكد قلة عددهم. وتخلخل تركزهم الجغرافي، ونود الإشارة إلى أن بعض ممن قاموا بارشاد الباحثين إلى أماكن تواجد هذه الجماعات كانوا من الأميين وغير المثقفين من غير الغجر، فقد كان بعضهم أكثر دراية من المثقفين. كما يُلاحظ أن وجود بعض الأفكار عند أنصاف المتعلمين عن موضوع الأقليات يجعلهم أحيانًا يرشدون الباحث إلى جماعات غير غجرية على أنهم غجر.

وتفيد هذه الدراسة المسحية في تكوين تصور أساسي عن الجماعات وتصنيفاتها الاجتماعية، والعلاقات السائدة بين أعضاء كل جماعة، ويعطي هذا فرصة للمقارنة بين الجماعات المختلفة، وتوضح أوجه الشبه والاختلاف بينهما، كذلك تساعد الدراسة المسحية على اختيار أنسب المناطق لإجراء الدرسات المركزة كما سبق وذكرنا، كما تسهم اسهاما فعالًا في فهم وتفسير الظواهر في مرحلة الدراسة المركزة، والتي يمكن أن يكون تفسيرها مختلفًا إذا فسرت بمنأى عن الفهم الشامل لطبيعة هذه الجماعات، وعلى الرغم من الجهد والوقت المبذول الذي تستغرقه الدراسة إلا أنه من الصعب على الباحث أن يلم بكل أنواع الغجر في مجتمعه.



وعادة يجري المسح الميداني في صورة عدد من الرحلات الميدانية. ولابد أن يدرك الباحث منذ بداية العمل الميداني أنه يجب أن يسبق كل رحلة ميدانية عملية إعداد، كإرسال خطابات إلى جهات أو هيئات ينتظر أن تقدم بعض التسهيلات للباحث.

وعلى الباحث أن يتزود دائمًا بخطاب رسمي يوضح شخصية وطبيعة البحث الذي يقوم به، وفيه يطلب تقديم المساعدة. ويعتبر هذا الخطاب مفيدًا وضروريًا خاصة في المناطق التي توجد بها جماعات إجرامية. وبالرغم مما قد تؤدي إليه هذه الإجراءات الرسمية من التسهيلات، فقد ثبت علميًا أن العلاقات الشخصية يمكن أن يكون أكثر فائدة من الاتصالات الرسمية. فالعلاقات الشخصية تؤدي إلى تفرغ البعض لمرافقة الباحث في جولته في المنطقة، وفي الدخول عند الغجر، ويكون هذا ضروريًا خاصة في المناطق الريفية والمعزولة التي يصعب فيها على الغريب أن يتجول بمفرده. كذلك يكون من المفيد في كثير من الأحيان أن يحصل على معلومات عن الغجر في منطقة ما قبل نزوله الميدان أن الغجر يسببون متاعب للغريب الذي يتجول في الحواري وبين المنازل، فهم يمكن أن يلقوا الماء المتسخ على ملابسه أو يفتعلوا مشاجرة لإخراجه من المنطقة، وذلك بسبب الشك الذي يساورهم تجاه الغرباء. وتسهم الاتصالات السابقة بقادة بعض المناطق والمسؤلين فيها في هذه الحالة في تزويد الباحث بمعلومات لاتخاذ الاحتياطات اللازمة قبل الدخول إليهم.

ولكن العيب الذي تتضمنه هذه الترتيبات هو أنه يمكن أن يصل إلى الغجر خبر بقدوم الباحث، مما يؤدي إلى زيادة الاحتياط منه، وفي بعض الأحيان إلى الشك في مهمته أو اتخاذ مواقف معادية من أول لقاء. والأكثر من ذلك أن بعض الغجر غير المستقرين عادة ما يغادرون المنطقة بمجرد علمهم بقدوم الباحث. وقد ذكر أحد الباحثين أنه أجرى مقابلات ناجحة مع مجموعة من الغجر واتفق على اللقاء معهم في الأسبوع التالي، ولكن فوجئ بأن الغجر تركوا منازلهم التي يملكونها في شبه حركة هجرة مؤقته. ولا يعرف أحد إلى أين ذهبوا ومتى يعودوا.

ونود أن نشير إلى أن توقيت الرحلات الميدانية في أوقات الأجازات والمواسم لم يكن مناسبًا في معظم الأحيان نظرًا لقيام المسؤلين وذوي الشأن في القرى بأجازات مما يضيع فرصة اللقاء بهم، وتعويق الاتصال بالغجر في المناطق التي صعب فيها الاتصال بهم مباشرة، وتتم الرحلات الميدانية في صورة زيارات لكل منطقة، وتحدد مدة الزيارة لكل منطقة وفقًا لظروفها، وطبيعة الجماعة المقيمة فيها، وعدد أفرادها، وظروف الإقامة فيها، ووفقًا للوقت الذي يشعر فيه الباحث أن المادة التي تم جمعها من المنطقة يمكن أن تكون مرضية نسبيًا لأهداف المسح الشامل. ويمكن أن يزور الباحث منطقة واحدة أكثر من مرة نظرًا لأهميتها، أو بسبب تجاوب الجماعات المقيمة بها.



ويمكن أيضًا أن يركز الباحث على بعض المناطق بحيث يمكنه من خلال التردد عليها فترة طويلة إعطاء صورة شبه متكاملة عنها.

٢. دراسات مركزة:

يجب أن تبدأ هذه الدراسة المركزة بعد عملية الدراسات المسحية، ويمكن أن تُتَبع في الدراسة المركزة نفس خطوات الدراسة المسحية السابقة من حيث الإعداد للرحلة وكتابة تقرير عن كل رحلة، ومن الطبيعي أن تكون الدراسة أكثر عمقًا. والمدى الزمني عادة يكون أكثر طولًا في الدراسة المركزة منه في حالة الدراسة المسحية، كما أن عملية جمع المعلومات في حالة الدراسة المركزة تكون أكثر تحديدًا ووضوحًا. وعندما تصبح الأهداف أكثر وضوحًا وتحديدًا، والعلاقات أكثر قوة سوف يجد الباحث نفسه في غنى عن كتابة التقرير الدوري، ويتطلب منه الأمر تقييمًا دوريًا للمعلومات المتوفرة عن كل موضوع يريد بحثه. ومن الطبيعي أن المعلومات أن المعلومات المُجمعة تستهدف نطاقين الأول، هو فهم الإطار الاجتماعي والطابع العام للجماعة التي يتم دراستها، والثاني الوصول إلى فهم واضح عميق للمشكلة التي سيحددها الباحث.

والبحث العلمي والمكتبات العالمية في حاجة أيضًا إلى بعض الدرسات المركزة التي تجري على جماعات غجرية تعيش في مناطق معينة. ويمكن أن تتم في صورة دراسات مونوجرافية تهتم بدراسة المجتمعات المحلية الغجرية بالطريقة التي يتبعها علماء الأنثرويولوجيا، أو تتم في صورة دراسة مركزة لبعض ملامح الحياة الاجتماعية للجماعات الغجرية كدراسة البناء الاجتماعي لجماعة غجرية، أو دراسة عناصر الفولكلور التي تنتشر في البيئة المحيطة، أو دراسة النشاط الاقتصادي للغجر، وما إلى ذلك.

مصادر المعلومات:

بالإضافة إلى اعتماد الباحث على الملاحظة فإنه في حالة جمع معلومات لابد من الحصول عليها من آخرين، يجب على الباحث أن يستقي هذه المعلومات من الغجر ومن غير الغجر، ويرجع ذلك إلى أن الغجر لا يمكن أن يكونوا وحدهم مصدرًا صادقًا، فالجماعة لا تعد مصدرًا كافيًا للحصول على المعلومات عنها، ويتسم الغجر بالانغلاق والتحفظ تلك الصفة التي توجد عند أغلب الغجر في العالم وإن كانت متفاوتة، ومصادر المعلومات تنقسم إلى المعلومات عن الغجر، والمعلومات من الغجر.

١) المعلومات عن الغجر:

مصدر هذه المعلومات أشخاص من غير الغجر، سواء أفراد من الهيئات الرسمية أو أفراد من المجتمع، والأبحاث والدراسات والتقارير، ويجب أن يكون الأشخاص ممن يعملون في دائرة المجتمعات المحلية التي يعيش



فيه الغجر سواء كانوا معايشين لهم، أو سمعوا ما أدى بهم إلى تكوين فكرة أو اتجاه عنهم، وهذه المعلومات تكون هامة جدًا خاصة في مراحل العمل الأولى خاصة عندما لا يكون للباحث قدر كافي من العلاقات مع الغجر، أو عندما لا تتوفر معلومات كافية عن أماكن تواجدهم، ويجب أن يكون الباحث حريصًا على أن يجمع المعلومات بأكثر من طريقة ضمانًا لصدق ودقة المعلومات، فحينما يجمع معلومات من غير الغجر يحاول التأكد من الغجر أنفسهم، والعكس صحيح، ويجب أن يكون بجانب كل ذلك الرجوع إلى السجلات المدرسية والوحدات الصحية، إلى المسئولين فيها لمعرفة مدى تردد الغجر على هذه المؤسسات التي تقوم بتقديم خدمات للمجتمع لمعرفة أكبر قدر ممكن عن الغجر.

ونود أن نلفت النظر إلى أنه قد تحول الظروف في بعض الأحيان أو تحول طبيعة المعلومة ذاتها دون إمكانية اختبارها على أكثر من محك، فالطريقة التي تم بها سرقة محل أو نشل شخص يصعب على الباحث في معظم الأحيان أن يتأكد من صدقها من السارق نفسه. وفي بعض الأحيان قد يكون من الصعب على الباحثين إجراء أي احتكاك بجماعة غجرية تحترف السرقة لما سيطولهم من أذى.

٢) المعلومات من الغجر:

يتم الحصول على هذه المعلومات من الغجر نفسهم عن طريق السؤال والجواب بطرق متعددة، أو عن طريق ما يجمعه الباحث في المقابلات. ومن أهم المحكات التي يعتمد عليها الباحث في تقييم المعلومات مدى ثقته في الشخص نفسه، وطبيعة شخصيته، ومدى ما يحس به من دقة فيما يقول. بالإضافة إلى أنه يجب أن يحاول دائمًا مقارنة المعلومات ببعضها خاصة تلك المعلومات التي تتعلق بظاهرة واحدة، والتي يجب أن يُسأل عنها أكثر من شخص، والشخص الواحد أكثر من مرة في أوقات متفاوتة وبطرق متعددة. ويجب أن يوجه الاهتمام إلى معرفة مدى تحيز الإخباري لجماعته ومدى موضوعيته في تناول الموضوع، والحكم النهائي للباحث بناءً على الظاهرة التي يلاحظها أمامه.

أساليب وطرق العمل الميداني:

يجب أن يدرك الباحث دائمًا أن أول لقاء مع أي جماعة غجرية، وأول كلمات ينطق بها يمكن أن تؤثر في اتجاههم نحوه ونحو البحث. لهذا عليه أن يكون حذرًا جدًا بالنسبة لكل كلمة ينطق بها. وعلى سبيل المثال فإن ذكر كلمة (غجر) لها حساسية خاصة عندهم، لهذا عليه عندما يريد التعرف على هوية أحد الأشخاص هل هو غجري أم لا أن يلجأ إلى كثير من الأسئلة غير المباشرة، وأن يتدرج في الأسئلة التي تيسر له التعرف عليه، كأن يبدأ



بالسؤال عن نوعية الأعمال، والعادات والتقاليد ثم الزواج. وبعد ذلك يسأل عن زواجهم من غير الغجر فإذا قرر الشخص أنه لا يتزوج من غير الغجر فإن ذلك يرجح أنه غجري. وعادة ما يوحي هذا السؤال إليهم أن الباحث يعرف أنهم غجر لكنه يثير أقل درجة من رد الفعل. ويمكن أن يلجأ الشخص في البحث عن الغجر في القرى لنفس الطريقة غير المباشرة بالسؤال عن الغرباء الذين وفدوا إلى القرية حديثًا، وهنا يتم تجنب الحساسية.

وكذلك يمكن أن توجد فرص لتجنب السؤال الأساسي: (من هو وماذا يريد؟) مثل مرافقة الباحث لموظفي الشئون الاجتماعية أثناء تأدية عملهم وقيامهم بزيارة الأسر الغجرية ففي هذه الحالة سوف تكون المناقشة طبيعية، ولن يسأل الناس في معظم الأحيان عن طبيعة مهمة الباحث إلا إذا تطرق إلى موضوعات لا تمت له بصلة، وهذه المرافقة تسهل على الباحث الدخول إلى الغجر في أي وقت.

ويعتبر **"أسلوب المقابلة"** أحد الأساليب الانثروبولوجية الأساسية التي يجب أن يتبعها الباحث لجمع المعلومات، فلا بد من إجراء المقابلات التي تفاوتت في نطاقها من حيث عدد أفرادها ومداها الزمني، ومدى الإعداد لها، فعليه أن يلتقي بالأهالي والمسئولين والغجر في مواقف متعددة، ويمكن أن يُدبر لقاءات بدون ترتيب مسبق، مثل جلسات المساء مع الأصدقاء، أو لقاء القهوة مع شخص له دراية بالغجر يلتقي الباحث به صدفة، وما شابه ذلك. وكلها لقاءات مثمرة ينتفي فيها عامل الشك والحذر. ويلاحظ أن المقابلات مع غير الغجر قد تمهد للقاءات مع الغجر وتيسر إمكانية مقابلاتهم فيما بعد.

وفي بعض المقابلات عندما يحجم الغجر عن الكلام تخوفًا، يمكن للباحث أن يبدأ أولًا بتوضيح معرفته بجماعات أخرى من الغجر. ولكنه يجب أن يكون حريصًا ألا يؤدي ذلك إلى زيادة التشكك فيه. ويتطلب ذلك دائمًا نوعًا من الحرص بحيث لا يذكر شيئًا إلا في الوقت المناسب وللضرورة. أما عن الأسرار التي يأتمنه عليها من وثقوا فيه من الغجر فيجب أن يكون حريصاً أشد الحرص على عدم ذكرها لأي إنسان، مدركًا أن أي كلمة يقولها سوف تنشر بسرعة بفعل نمط الاتصال السريع بينهم. ومن المعروف أنه بقدر ما تكون علاقة الباحث قوية مع أفراد المجتمع الذي يدرسه وبقدر معرفته لهم، بقدر ما يستطيع أن يدير المناقشة بدون ملل أو استياء.

التصوير الفوتوغرافي والرسوم والخرائط:

إذا كان الباحث يود الاحتفاظ بصور فوتوغرافية، أو يود تدعيم بحثه بها، فيجب أن يبدأ عملية التصوير الفوتوغرافي في مرحلة متأخرة من العمل الميداني، ولا يجب أن تتم على دفعة واحدة، فيفضل أن ترافق الكاميرا الباحث في نهاية جمع المادة في مناسبات متعددة لانتهاء الفرص التي قد لاتتكرر. وليكن حريصًا دائمًا على أن يمهد



للتصوير، وألا يلتقط صورًا لأحد إلا بناء على رغبته. والوقت المناسب للتصوير هو الذي يرى فيه الباحث ظاهرة جديرة بالتسجيل بالصورة، والذي يرغب فيه الناس في التقاط صور لهم. ويلاحظ أن التصوير في الأفراح والموالد والمناسبات العامة أكثر سهولة منه في مواقف أخرى، إذ أن المناسبة تدفع الناس لأن يكونوا أقل تحفظًا. ويلاحظ أن الحصول على الصورة مجانًا عادة ما يكون مقابلًا عادلًا لتحقيق هدف الباحث، ولإقبال البعض على التصوير. كما أن الوفاء بالوعد وإحضار الصور في الوقت الذي يحدده الباحث أمرًا حيويًا بالنسبة لهم.

الباب الثاني

"جماعات الغجر في العالم"

الفصل الأول : من هم الغجر؟

إذا كانت **كلمة Gypsies** هي الكلمة الشائعة التي يطلقها الناس على هذه الجماعات في إنجلترا ودول الكومنولث والولايات المتحدة الأمريكية لتدل على جماعات الغجر، (وقد ظهرت هذه الكلمة لأول مرة في اللغة الإنجليزية سنة ١٥٣٧م)، والتي يطلقها الغجر على أنفسهم إلا أن هذه الجماعات تشتهر باسم آخر بالإضافة إلى هذا الاسم هو (روماني Romany) الذي يطلق على جماعات أوروبا وهناك بعض الآراء التي تحاول تفسير هذا المصطلح، بعضها يفترض أن الكلمة مشتقة من كلمة روما Rom. فالرجل الغجري هو الرجل الذي يقع في طبقة منخفضة، ويفترض البعض أن هذا الاسم قد نشأ نتيجة طول فترة إقامتهم في الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تسمى قديمًا روميه Roum،وعلى الرغم من أن هناك افتراضًا أن يكون هذا الاسم قد نتج عن طول فترة إقامتهم في رومانيا نظرًا لوجود عدد كبير منهم، إلا أن "بورو" **يرى أن الكلمة ليست مشتقة من اسم هذه البلد، ولكنها كلمة غجرية بصفة أساسية تعني الشخص الذي يكن له الجيتانوس (الغجر) الطاعة بينهم وبين أنفسهم.**

ويطلق على الغجر أسماء أخرى في مناطق مختلفة من العالم. وغالبًا ما ترتبط هذه الأسماء بصفات تعبر عن التصورات النمطية السائدة لدى الناس عن الغجر. فيطلق عليهم مثلًا في فرنسا "البوهيميون" نظرًا لأن البعض يعتقدون أنهم يتصفون بالفجور. ويعرفون في شمال أوروبا بالتتر (المتوحشون)، ويلاحظ أن الأسماء المختلفة التي تطلق عليهم في الأماكن التي يعيشون فيها ترتبط معظمها إما بصفات يتصف بها الغجر بالفعل، أو بصفات يعتقد الناس أن الغجر يتصفون بها. وتطلق عليهم بعض الدول الاسم بناء على نوع التجارة التي يعملون فيها كتجارة التماسيح أو أعمال الخزف، كذلك أطلقت عليهم أسماء ترتبط بالمكان الذي نشأوا فيه أو هاجروا منه أو الذي يعيشون فيه فيقال مثلًا: الغجر الأمريكيون أو الإنجليز وغجر إيطاليا، أو غجر إسبانيا..... وهكذا.



ولكن لا يستخدم تعريف الغجر بالرجوع إلى الدولة التي ينتمون إليها كثيرًا إذ لا يتضمن أي تعريف بالجماعة نظرًا لأن هناك غجرًا في إيطاليا والسويد وروسيا، ولا توجد بينهم إلا اختلافات طفيفة، فالاختلاف الوحيد هو أن اللغة الثانية لكل منهم هي لغة البلد التي يعيشون فيها.

أعداد الغجر وجماعتهم الأساسية:

تباينت وتعددت الآراء حول تقدير أعداد الغجر في البلاد المختلفة. فقد قرر البعض أن أعداد الغجر في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية تتراوح بين ٧٥٠,٠٠٠ ومليون أو نصف مليون نسمة. ويعد هذا أقل التقديرات نظرًا لاختلاط الغجر بكثير من الجماعات التي تهيم على وجهها، ونظرًا لاختلاطهم بالعمال الذين يعملون في فترات متقطعة، بجانب أن طبيعة ترحالهم تمكنهم من الهروب من الإحصاءات. ومع ذلك فهناك كثير من الغجر المستقرين. ويرى البعض أن أعدادهم تفوق أعداد الغجر المتنقلين. ففي ويلز على سبيل المثال معظم الغجر مستقرون. وقد تناقصت أعداد الغجر في أوروبا بسبب الحرب إذ قامت حكومة النازي بعزلهم وإبادتهم، وقد ذلك إلى تناقص عددهم في ألمانيا وحدها من ثمانية عشر ألف غجري إلى خمسة أو ستة آلاف.

وطبقا للبحوث التقديرية التي أجريت على الغجر الشرقيين فإن أعدادهم كانت تتراوح بين ٦٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ غجري. أما أعداد غجر شمال أفريقيا فهي معروفة. وقد اختفى الغجر تماما من بلاد الأرجنتين وأستراليا وجنوب أفريقيا ومن السهول الكبرى. وقد بلغ عددهم في الولايات المتحدة ١٠٠,٠٠٠ نسمة وكان نصيب مدينة نيويورك وحدها يتراوح بين سبعة آلاف واثنى عشر ألف غجري.

وبصفة عامة فإن هناك اتفاقًا بين المهتمين بدراسات الغجر في أوروبا على أن أعدادهم تصل ستة ملايين نسمة موزعين في مناطق متفرقة من العالم، وهناك ثلاث جماعات رئيسية تحمل الدم الغجري:

١. **الجيتانوس (في فرنسا):**

هذه الفئة نادرًا ما يقابلها الانسان إلا في أسبانيا. وشمال أفريقيا، والبرتغال وجنوب فرنسا. وهم يختلفون عن الكالوراس في المظهر الفيزيقي واللهجة، وفي العادات. وهم ينقسمون داخليًا: الجيتانوس. والأسبانيين والكاتالان، وغجر الأندلس.

٢. **الغجر الكالدراس:**

وهي الفئة الوحيدة التي يعتقد أنها جماعة غجرية أصلية. وهم كما يقولون حدادين قبل كل شيء، ويعملون في الصفيح والنحاس، وقد أتو حديثًا من بلاد البلقان، وبعد ذلك وسط أوروبا ثم انقسموا إلى خمس مجموعات،



ويُعتقد أن الكالدراس هم رؤساء بقية الغجر، وأنهم أعلى قبائل الغجر شأنًا. وهم يبرهنون على ذلك برفضهم تزويج بناتهم من القبائل الأخرى من الغجر، ويقبلون الزواج من بنات القبائل الأخرى لأبنائهم.

٣. المانوش (في فرنسا):

وهم البوهيميون التقليديون. واسمهم يعني في اللغة السانسكرتيية (الأصليين)، وهم يسمون أيضًا السينتي لأنه يحتمل أن يكونوا من أصل هندي، وفروا من على شواطئ نهر السند وينقسمون إلى عدة جماعات فرعية.

ويُلاحظ أن هناك جماعات غير غجرية تحاول الانضمام إلى الجماعات الغجرية مثل صانعي السلال، أو مصلحي الكراسي، أو بائعي الأدوية الزائفة، أو المشعوذين، أو البهلوانات، وتحتقر جماعات الغجر هذه الجماعات المنتسبه لهم.

الشكل الفيزيقي والمظهر الخارجي:

لم تجر دراسات متخصصة متعمقة للشكل الفيزيقي والملامح الأساسية للغجر بحيث يمكننا التعرف على الخصائص المميزة للغجري النموذجي. وقد كان "جورج مين" من بين الذين حاولوا تحديد صفات الغجري الحقيقي أو النموذجي، فقد قرر أن الغجري الحقيقي له بشرة داكنة وشعر أسود، وعينان لامعتان، وأسنان براقة، ووصف "تلهاجن" غجري سويدي بأنه كان قصير القامة ممتلئ الجسم ذو كتفين عريضين، ويرى البعض أنه يمكن تمييز السلالة النقية أو شبه النقية من الغجر تمييزًا واضحاً. فبشرتهم تميل إلى السواد بصفة عامة، وتتدرج من اللون الزيتوني القاتم إلى البني أو الأسود.

وعلى الرغم مما ذكر أن الغجري داكن البشرة، وأسود الشعر والعينين، إلا أنه اتضح أن بعض الجماعات الغجرية لا تتصف بهذه السمات كما ذكر "بينهارل" غجر Garinthian. بالوصف التالي:

(أن معظم النساء كن شقراوات إلا واحدة كانت لها الملامح والسمات الفيزيقية الهندية، أما الرجال فكانوا طوال القامة وممتلئين، وبدلًا من أن يكون لونهم زيتوني، كانت بشرتهم حمراء قاتمة، ولكن كانت لهم الملامح الغجرية المعروفة: الوجه البيضاوي، والحاجب المنخفض، والأسنان العاجية، والشعر الأسود الفاحم الذي يتدلى مجعدًا على الأصداغ، وليس لهم ثياب قومية فهم يرتدون ثياب البلد التي يسكونوها).

اللغة:



يرى علماء فقه اللغة أن لغة الغجر لغة هندو أوروبية ترجع بجذورها إلى السنسكريتية. ويرجع هذا إلى أن نقطة انطلاقهم كانت وسط أو جنوب آسيا. وقد امتزجت لغتهم قليلًا بالاختلافات المحلية، ومع ذلك فهي أينما وجدت أوثق ارتباطًا باللغة الهندوستانية من أي لغة أخرى، كذلك قرر "جروم" أن هناك ما يقرب من مائة كلمة يونانية في لغة الرومني، وهناك العديد من الكلمات السلافية، وبعض كلمات قليلة من الفارسية والأمريكية والرومانية والمجرية، والكلمات الألمانية الأصل. أما بالنسبة لوجود عناصر من اللغة العربية في لغة الرومني فهذا أمر مشكوك فيه.

وتسود بين الجماعات لغات سرية تسمى باتيران Patteran وهي لغة رمزية لا تعرف إلا بينهم فقط، وتعني كلمة باتيران ورقة نبات، كما أنها تعني إشارة أيضًا. وترجع إلى أنهم يتركون في الطريق غصنًا بعد كل مائة قدم لإرشاد من يأتي بعدهم.

أهم الفروض التي تحاول تفسير أصول الغجر:

١. الفرض الذي يربط بين الغجر وبين الشعب اليهودي:

حاول الكُتاب أن يذكروا بعض الملاحظات عن التشابه بين اليهود المشتتين، وبين الغجر المشتتين. وكلاهما يعتبر نفسه ملعونا ومجبرا على التجوال بين الشعوب الأخرى لفترة غير محددة، وقد أوضح ذلك "كولين دي بلانسي" حين ذكر (أن المؤرخين اعتبروا بمجرد الحدس – أن البوهيمين أو الغجر وفدوا من آشور وسيلوقيا (في جنوب شرق آسيا الصغرى)، ومن النوبة والحبشة، ومن بلاد الكلدانيين. وفي إطار مناخ الشك في مصدرهم وأصولهم يعتقد "بيلون" أن أصولهم على الأقل لم تكن مصرية، لأنه وجد تسجيلات تشير إلى أنهم عندما كانوا في القاهرة، كان ينظر إليهم على أنهم أجانب مثلما حدث في أوروبا. ولهذا فهو يرى أنه من الطبيعي أن نعتقد أنهم هم اليهود المشرديين. وفي منتصف القرن الرابع عشر منيت أوروبا، وخاصة ألمانيا وفرنسا بوباء الطاعون، وقد وجه الاتهام إلى اليهود بأنهم هم الذين وضعوا السم في الآبار وخزانات المياه. وقد آثار هذا الاتهام سخطًا على اليهود حتى أن بعضهم فر إلى الغابات. وقد اتحدوا مرة أخرى حتى يؤمنوا أنفسهم، وقاموا ببناء مخابئ بأحجام مناسبة لكي يحتموا بها تحت الأرض. ومن المعتقد أنهم هم الذين حفروا النقوش وأشكال النحت الموجودة حاليًا في ألمانيا، والتي لم يهتم بها أحد بصورة جدية.

وقد أدرك هؤلاء الهاربين أن عملية رؤية الطالع سوف تكسبهم المال الوفير. وقد اختاروا لهم قائدا ورئيسًا يدعى "زوندل". وكان الضروري بعد ذلك أن يوضحوا أسباب قدومهم إلى ألمانيا، وأن يوضحوا ماضيهم وديانتهم. ولما كان إفشاء سر حقيقتهم يعرضهم للخطر، فقد اتفقوا على أن يذكروا أن أجدادهم كانوا يعيشون في مصر، وهم



في الحقيقة من اليهود، وأن أجدادهم قد طردوا من بلادهم لأنهم لم يقبلوا السيدة العذراء وابنها. وهذا هو السبب في أن أطلق عليهم مصريون.

وقد كونوا لأنفسهم لغة عامية أو رطانة سرية اختلطت باللغة العبرية والألمانية، حيث يتكلمونها مع لهجة أجنبية. ويقول أصحاب هذا الرأي أن الكمات العبرية الكثيرة التي ما زالت موجودة في لغة البوهيمين كافية وحدها أن تؤكد أن أصلهم يهودي. ومنذ اللحظة التي وجد فيها أعضاء هذه الجماعة أنهم مقبولين ولم يعودوا يتمتعوا بالامتيازات التي يحصل عليها المطرودين شفقة من الناس حاولوا إثارة شفقة الألمان ولكي لا يصبحوا عبئًا عليهم، أكدوا لهم أنه صَدَرَلهم عفو سمائي خاص، وهو الذي حماهم في فترة عقابهم. كما أكدوا لهم أن المنازل التيق حصلوا عليها لم تكون عرضة لنشوب نيران أخرى. وقد عملوا في التنبؤ بالحظ معتمدين على فحص قسمات الوجه، وعلامات الجسم، وخاصة قراءة الكف وفحص خطوط اليد والأصابع وأعلنوا عن أنهم يعملون في مثل هذه الأشياء، كما قامت نساؤهم برؤية الطالع على نطاق واسع وبمهارة فائقة.

٢. **الفرض الذي يرصبط بين الغجر والبوهيميين:**

لقد وفد البوهيميون إلى فرنسا وكونوا جماعة عاشت بين الجوليارد (جماعة من الكهنة والرهبان المتجردين الذين جالوا في أوروبا كمغنيين تحت قيادة الأسقف جواياز) وبين الجماعات الشريدة الأخرى. وبعد ذلك أصبح لفظ البوهيميين يطلق على الجوليارد، ثم بعد فترة أصبح المصطلحان يعنيان شيئًا واحدا. وفي القرن الخامس عشر عندما ظهر أول غجر في وسط أوروبا بعد فترة تجوال طويلة، وكان لونهم لا يختلف عن لون المتشردين (البوهيميين). فلم يكن من الغريب أن يطلق عليهم نفس الأسم، وأول كتابات صدرت عن البوهيميين اعتبرت أنهم غجر.

٣. **وجهة النظر التي ترتبط بين الغجر والحدادة:**

هناك وجهة نظر (في مجال المقارنة بين الأفكار المختلفة التي تبحث عن أصل الغجر) تترك مجال الجغرافية البشرية إلى مجال التقنية. فلا تهتم كثيرًا ما إذا كان الغجر كانوا في كالديا أو مصر أو غيرها، بل الأهم هو أن القصص والأحداث كلها تصف الغجر على أنهم حدادين من أنواع مختلفة. فهم يعلمون في الحديد والبرونز والذهب والمعادن الثمينة. وقد أظهر الكتاب المقدس أن قابيل كان هو جد كل الذين يعملون في النحاس والحديد. كذلك تشير القصص التي تتعلق بحادثة الصلب إلى عملية صنع المسامير الحديدية، بالإضافة إلى أن السنتي الذين أتوا إلى كلدانيا من الهند كانوا عمالًا مهرة في أعمال النقش (بالأزميل)، وأن اليونان السينتي الذين يعملون في الحدادة. كما أن جماعات الغجر الكالدراس يعملون في مختلف المعادن.



ويقودنا هذا إلى أن نقرأ بين مسألة أصل الغجر، وبين ظهور الحداد في أوروبا، فبعد اكتشافه اعتبر الناس أن علم المعادن من المهن الشريرة وأن هذه المهن يقوم بها الأشرار. وقد ربطت الأساطير ربطًا واضحًا بين أنواع التجارة التي تتطلب استخدام النار وبين الفنون السحرية. وأكد "الياد" أنه في مستويات ثقافية مختلفة توجد علاقة قوية بين فن الحدادة والسحر والتنجيم وبين الرقص والغناء، وكل هذه حرف الغجر.

٤. وجهات النظر التي تقرر أن الوطن الأصلي للغجر هو الهند:

ظلت الآراء السابق الإشارة إليها والتي تتناول الغجر متداولة فترة طويلة من الزمن إلى أن قدم لنا البحث في أصول اللغويات اكتشافًا غير متوقع بأن الغجر ينتمون إلى الجنس الهندي فهم ليسوا إلا قبيلة متجولة من أحد الأودية الهندية. وقد تعددت المناهج التي حاول بها الكُتاب إثبات وجهة نظرهم، وقد لاحظ السير "هنري سليمان" في دراسته القيمة والمركزة في الهند ما يؤكد احتمال أن يكون الغجر هم سلالة الدهماء الهنود الذين طردهم الغزاه التارتار Tartar من ديارهم. وأن لهجة الغجر تشبه تمامًا لهجات شمال الهند لدرجة أن الرجل الهندي الحالي يمكن أن يفهم تمامًا قبائل الغجر الأوروبية. ويفترض كُتاب أخرون أن الغجر كانت قبائل تمارس السلب والنهب في الهند قبل أن يطردهم الغزاة.

ويُلاحظ أنه عندما ازدادت عمليات المقارنة بين الغجر وبين جماعات بدوية في الهند نبه بعض الكُتاب إلى أنه من الخطير أن نقرر وجود علاقة بين القبائل الهندية وبين الغجر، وبالاعتماد على مجرد التشابه في طابع الحياة فقط. ولا يميل من يهتمون بهذه الدراسات من الهنود إلى اعتبار كل منهم (بدو) غجر. وهناك رأي يرى أن القبائل الوحيدة التي يمكن أن تطلق عليها (غجر) هي قبائل فانجارا ولاماني، وقبائل الفانجارا تعيش بجوار بومباي وهم يحترفون الشحاذة وصناعة الأشياء التافهة، ويعيشون حياة بدوية في شكل جماعات، ويستعملون الحمير وليس العربات، وهم ليسوا مشعوذين، أما اللاماني فهم شعب وسيم إذا قارنا بشرتهم بغيرهم، وهم يرسمون الوشم على جلودهم، وتلبس النساء عندهم ملابس طويلة، وتعلق أجراس صغيرة في كواحلهن. ويعتقد هؤلاء الناس أنهم جاءوا من إيران.

ومن المؤكد أن القبائل الغجرية الأصلية ما زالت تعيش في الهند. ولكن لسوء الحظ لم تجر عليهم أيه دراسات. وعلى الرغم من ذلك فإذا كان من غير الممكن أن نصفهم. فإنه من الجائز أن ندرس العلاقة الواضحة بين لغة الغجر – الرومني – وبين لهجة شمال الهند.

وإذا كان بعض الكُتاب ما زال يتشكك في انتساب جماعات الغجر إلى الهند إلا أن الرأي القائل بأن الهند – وخاصة شمالها – هي مهد شعب الغجر أصبح يلقى قبولًا كبيرًا بين المهتمين بتاريخ الغجر.



ولم يُعرف التاريخ الدقيق الذي ترك فيه الغجر الهند، ولا أسباب هذه الهجرة. ومن المحتمل أنهم تركوا الهند في مناسبات متعددة، ولأسباب مختلفة. ومن المرجح أنهم وجدوا في فارس، ثم انقسموا إلى فرعين: فرع رحل جنوبًا وغربًا إلى مصر وإلى شمال أفريقيا، أما الفرع الآخر فقد اتجه إلى الشمال إلى أوروبا وبلاد البلقان واتجهوا إلى المجر ووصلوا إلى الأجزاء الغربية من ألمانيا سنة ١٤١٧م، كما وصلوا بولونيا ١٤١٧م، ثم عسكروا على أبواب باريس سنة ١٤٢٧م. وهناك سجلات تدل على أنهم كانوا موجودين في روسيا وبولندا، وبريطانيا العظمى والسويد في السنوات الأولى من القرن السادس عشر.

الفصل الثاني

التاريخ والاضطهاد

لقد أثر الغجر تأثيرًا قويًا على مجتمع العصور الوسطى. فلم يكن هناك من يعرف شيئًا عن حقيقة أصلهم. وعندما عبروا الحدود ودخلوا أوروبا لم يتمكن أحد أيضًا من التعرف على المكان الذي وفدوا منه، وبدوا كما لو كانوا جماعة بلا جذور. وقد أدى فضول سكان المدن الأوروبية بهم أن يحاولوا التعرف على هذه الجماعات الغريبة، فطلبوا منهم أن يقرأوا لهم الكف واعتبروهم سلالة مميزة.

وعندما ظهر الغجر لأول مرة في أوروبا كانوا يشبهون المهاجرين من آسيا. وقد وفد الغجر في شكل جماعات صغيرة تضم كل جماعة عدد من الأسر. وقد كانوا يبحثون عن فرص للعمل ولممارسة تجارتهم ومهنهم التي تخصصوا فيها. ولكن لم تتح لهم فرصة السكن في المناطق السكنية كما أتيحت لغيرهم من المهاجرين. فقد ازدحمت كل المناطق بالمهاجرين من مختلف الأجناس ولم تتوفر لهم أماكن إلا في المناطق المتطرفة الهامشية. وكان عليهم أن يبذلوا جهدهم لكي يجعلوا هذه الأماكن صالحة للمعيشة ولممارسة حرفهم ومهنهم.

جهل الغجر بأصولهم:

وقد كان جهل الغجر بأصولهم وجذورهم، وعدم وجود روابط تربط بينهم وبين أي منطقة معروفة عاملًا من عوامل إثارة الشكوك حولهم، وقد أدى هذا إلى أن يسود بين الناس عدم ثقة في أن هذه الجماعة هي جماعة إثنولوجية مستقلة، هذا على الرغم من أن بعضهم ادعى أنه وفد من مصر. وقد كتب أحد الكُتاب عنهم أنهم (جنس يهودي اختلط بعدد من المسيحيين المشتتين).

البشرة السوداء وانحطاط الغجر:

وقد تسبب المفهوم العنصري الذي رسخ في عقلية المجتمع الغربي أن البشرة السوداء تعني التخلف والانحطاط والشر، وهو ما جلب كثير من المتاعب للغجر. فقد كانت البشرة السوداء التي يتميز بها الكثير منهم



علامة وسببًا في أن يصبحوا ضحايا لهذا التعصب. وحتى في آسيا كان هناك تفضيل للبشرة المائلة إلى الشقرة. وقد كتب الراهب "كورنريس في لوبيك" تقريرًا عن الغجر في سنة ١٤١٧م وصفهم بأنهم أصحاب (أقبح وجوه سوداء. تلك التي تشبه وجوه التتار). وقد أوضح أحد الأمثال الشعبية كيف أن الناس يقارنون بين الظلام والسواد وبين بشرة الغجري. فالمثل يقول (نفس الشمس تجعل الكتان أبيضًا والغجري أسودًا)، ويتداول الإيطاليين والهولنديين مقولة (أسود مثل الغجري).

وقد كان من يدخلون في مناقشات عنصرية خاصة باللون يحتجون دائمًا على الغجر ويقولون أنه برغم عدم وجود أية ميزة في أن يكون الشخص أسودًا في مجتمع أبيض فإن الغجر يتعمدون إضافة لون أسود إلى بشرتهم باستخدام اللون الجوزي، وباستخدام مواد أخرى مأخوذة من النباتات، وقد أوضحت كثير من القوانيين الصادرة في العصور الوسطى أن الغجر كانوا يتعمدون الظهور بأنهم غجر. ولهذا صدرت القوانين في بعض الفترات ضد كل من يرتبط بالغجر بأي شكل من الأشكال، وكان ارتباط الشخص بالغجر هو جزء من إثبات التهمة عليه. وقد نما الإحساس بأن الغجر فئة شاذة وخادعة إلى الحد الذي قاد الناس إلى أن يفسروا كل ما يرتبط بهم على أنه يهدف إلى الخداع.

رفض الدين وممارسة السحر:

أما العامل الذي أثر تأثيرًا قويًا في ظهور الاتجاه العدائي نحو الغجر هو أنه في وقت وصول الغجر إلى أوروبا لم تكن لهم ديانة محددة لهذا تعرضوا للهجوم من رجال الأكليروس المسيحيين، وقد كان الجميع يشعرون أن الغجر جماعة شاردة نظرًا لأنهم لم يحاولوا أن ينضموا إلى أي من الاتجاهات الدينية السائدة في ذلك الوقت. فقد اعتبر الغجر على سبيل المثال في جنوب شرق أوروبا جماعة لا دين لها. وأدى هذا إلى أن يقابلوا بالاحتقار وأحيانًا بالانتقام. وضاعف هذا من شدة السخط الذي يواجهونه كجماعة.

وقد أدى عدم اهتمام الغجر بالدين إلى أن يتخذ غير الغجر إجراءات ضدهم. ففي مناطق البرانس الغربية يستمع الغجر إلى القداس وهم يقفون على الشرفات خارج الكنيسة وفي ألبانيا لا يجلسون إلا في الصفوف الخلفية في الجوامع. وحتى في المناطق التي يدينون فيها بالإسلام في تركيا يدفع الغجر نفس الضرائب التي يدفعها المسيحيون وغير المسلمين. وقد أعلن أحد رجال الدين الأرثوذكس في بلغاريا خلال القرن الثامن عشر أنه تعتبر خطيئة عظيمة أن يعطي المرء أي شيء لغجري.

وفي منتصف القرن الخامس عشر، بدأت موضوعات رؤية الطالع تأخذ مكانها في التراث المعاصر. وقد أدت الكتابات المختلفة إلى توضيح دور رؤية الطالع وأهمية المهارات التي يمارسها الغجر. وقد ظهر ذلك لأول مرة في مسرحية في لوسيرن حوالي سنة ١٤٧٥م وعرضت المسرحية أربعة نساء غجريات يمارسن قراءة الكف.



وبينما أدت السمعة التي انتشرت عن الغجر فيما يتعلق برؤية الطالع إلى بعض الاضطرابات في الكنيسة، فقد ساعدت على تعميق صورتهم في العقلية الشعبية، وأعطت للغجر هالة سحرية، ويمكن القول إن الغجر قد أضافوا لونًا معينًا إلى مشاهد العصور الوسطى. وبلا شك في أن بعضهم قد أظهر مواهبه في قراءاة قسمات الوجه بالإضافة إلى قراءة الكف وقد مارسوا هذه الفنون مع المتعلمين والمثقفين.

الضغوط والجريمة:

في العصور الوسطى ازداد شك وكراهية الغجر وظهر ذلك في صورة معارضة شديدة للغجر من قبل الثلاث قوى الرئيسية في أوروبا وهي الكنيسة والدولة ورؤساء النقابات الحرفية والتجارة. وأصبح الغجر يلقون رفضًا قويًا لم يحدث بهذه الدرجة في أي وقت مضى. وصدور القوانين ضدهم كان من أقوى التهديدات لهم. وقد أضاف تقلص مهنهم التقليدية أمام منافسة وغيرة النقابات الحرفية الأخرى إلى مواجهتهم صعوبات أخرى. ولم ينجح الغجر في أية حرفة عملوا فيها سوى العمل في المعادن والحدادة وبعض الحرف الصغيرة الأخرى. وعملوا إيضًا في حرفة صناعة الأوعية والأدوات. وفي الصرب تفوق الغجر على الحدادين المحليين وحلوا محلهم لأنه ثبت أن ما يعملونه بأيديهم كان أجود مما يعمله غيرهم.

وقدأدت هذه الضغوط إلى أن يمارس الغجر بعض الجرائم وأن يلجأوا إلى الاحتيال. وقد كانت إقامتهم في المناطق الهامشية من البلد عاملًا من عوامل الشك فيهم. وقد أدت المنافسة الشديدة التي تعرضوا لها إلى أن يفكروا في استخدام ذكائهم وملكاتهم لكي يستطيعوا العيش. وأن يمارسوا السرقات الصغيرة والكبيرة حينما يتمكنوا من ذلك. وقد كانوا يشبهون في أوضاعهم الشحاذين الدائمين، وبدأت تتكون في العقلية الشعبية صورة غير مرغوبة عن الغجر، وقبل أن تمضي خمسين سنة على دخول أول جماعات غجرية إلى غرب أوروبا بدأت السلطات تتلقى شكاوى متزايدة عن الغجر. ووجد ملاك الأرض أن الغجر يحاولون أن يلهوا المزارعين بصرف انتباههم عن عملهم ثم يسرقوهم.

وقد صاحب هذه الظواهر شيوع كثير من الأقوال الشعبية عن سرقات الغجر وعدم أمانتهم، ففي المجر ينتشر أحد الأقوال وهو (يمكنني أن أرى فيه غجري) ويعني أن صفة الاحتيال واضحة فيه، وظهر ت بعض الأمثال في روسيا تربط بين الغجر وبين السرقة مثل: (إن الغجري لا يسرق من مكان قرب معسكره)، (الغجري لا يسرق غجري).



وقد أصبحت الجهات الرسمية تنظر للغجر على أنهم خارجين عن القانون. وتعكس ذلك التشريعات والقوانين والفقرات التي صدرت خاصة بالغجر. وعلى سبيل المثال فإن المرسوم الذي أصدره الملك هنري الثامن في إنجلترا يعكس هذه النظرة.

وبالمثل أشارت حكومة فينيسيا سنة ١٥٥٨م إلى الصفات السيئة التي يتصف بها الغجر، وإلى المتاعب والأضرار والاضطرابات التي تسببوا فيها. وقد اتهموا في الدول الاسكندنافية بأنهم يتجولون في البلاد يخدعون الناس بالكذب والسرقة والاحتيال. وأشار القانون البرتغالي بوضوح في نفس السنة إلى الكثير من الجرائم التي يرتكبها الغجر وإلى العرافة التي يدعون معرفتها، والنقطة الهامة التي يجب أن نلاحظها أن فئة الغجر المنحرفة التي صدرت ضدها هذه القوانين كانت لاتتعدى عدة آلاف غجري، منهم الذين أصبحوا خارجين عن القانون ولكن نظرًا لتعدد أعمال السلب ونظرًا لأن حركتهم بين المناطق المختلفة أصبحت سريعة فقد بدا للسلطات أن أعدادهم كبيرة وأنهم يوجدون في كل مكان.

وقد قيل عن الغجر إن الله لعنهم لأنهم رفضوا أن يأووا العذراء في خيامهم أثناء هروبها مع يوسف النجار والطفل يسوع إلى مصر. وقد حاول بعض الغجر التخفيف من هذه التهمة بأنهم ادعوا أنهم كانوا في فترة تجوال طويلة قضوها مشردين كعقوبة لهم على اقترافهم هذه الجريمة. وهذا ما جعل هناك فرصة أكبر لتصديق القصة. وتتداول في إيرلندا قصة المسمار الذي صنع لصلب المسيح وظل متوهجًا لا يطفأ يطارد الغجري المتجول في كل مكان.

والكنيسة إما أنها شجعت مثل هذه القصص، أو على الأقل لم تحاول أن تتصدى لها. وفي نفس الوقت ساندت سلطة الأكليروس القوانين الصادرة ضد الغجر. وقد شاهد أعضاء مجلس كنيسة أبردين في إنجلترا سنة ١٦٠٨م رجلين يبيعان اللحم والمشروبات للغجر فكان عقابهما هو أن يركعوا أمام الناس قبل الصلاة يوم الأحد تكفيرًا عن خطيئتهما.

ولم يبدأ اهتمام الكنيسة بخدمة الغجر، والاهتمام بهم إلا مع بداية القرن الثامن عشر وما اتسم به من طابع إنساني. فقد نظمت في إنجلترا أول إرسالية دينية عام ١٨١٥م، وقامت الطوائف البروتستانتية بإرساليات تبعت إرسالية إنجلترا وقد بدأت في ألمانيا. وأقام قس كاثوليكي مدرسة للغجر في المجر عام ١٨٥٠م.

الفصل الثالث

(الغجر ومصر)



من خلال دراسة الكاتب ومناقشته للآراء والنظريات حول أن مصر الموطن الرئيسي للغجر نستنتج أن مصر لم تكن هي الوطن الأم بل الرأي الأرجح هو الهند، ويُحتمل أن الغجر قد مروا بمصر وهم في طريقهم إلى أوروبا. وفي هذه الحالة يمكن أن تكون جماعات الغجر في مصر هم نسل فئة من هؤلاء الغجر استقرت في مصر ولم ترحل منها، بجانب من اختلط بهم سلاليا من المصريين خلال هذه القرون الطويلة ولكن هناك ملاحظتان:

الملاحظة الأولى :

أن هذا الرأي يبقى فرضًا يحتاج إلى إثبات أو تعديل أو رفض بناء على دراسة نظرية وإمبيريقية. وتتناول هذه المقارنة ثلاث أنواع من الجماعات هم غجر مصر، وغجر الخارج، والشعب المصري نفسه. وتتم المقارنة على المستوى الفيزيقي والاجتماعي والثقافي والتاريخي. بعدها سيمكننا أن نجد رأيًا ثابتًا. وتكمن هذه الدراسات في أن الآراء التي ذكرت ونوقشت هنا لم تُدَعم بأسانيد علمية كافية وأن نفس المؤلفين قد نوهوا إلى وجود شك فيما توصلوا إليه من نتائج.

الملاحظة الثانية :

أنه في حالة إذا تمت هذه الدرسات للعلماء على الغجر نكون في حاجة لمعرفة تاريخ قدوم الغجر إلى مصر ومدة بقائهم فيها وتاريخ هجرتهم منها. وهذا يحتاج إلى دراسة تاريخية. وإلى أن تتم هذه الدراسة سوف يبقى أمر إثبات مسألة هجرة الغجر إلى مصر ومن مصر أمرًا مجهولًا تماما كما هو الحال بالنسبة لتاريخ خروجهم من الهند.

آراء العلماء حول أصل الغجر وانقسامهم إلى فريقين:

ظهرت بعض الآراء التي تفترض وجود علاقة بين الغجر ومصر وينقسم أصحاب هذه الآراء إلى فريقين، فريق يقرر أن الغجر في مناطق متعددة من العالم وخاصة في أوروبا ترجع أصولهم إلى مصر، وبهذا يعتبرون أن مصر هي الموطن الأصلي للغجر، بينما الفريق الآخر أن أصول غجر مصر ترجع إلى أوروبا. وبهذا يفترضون أن الغجر في مصر ينتمون إلى جماعات غجرية في مناطق أخرى من العالم.

الرأي الأول: مصر موطن أصلي للغجر.

ساد الاعتقاد فترة طويلة بأن مصر هي الموطن الأصلي للغجر. فيقول بورتون، إذا كان هناك شيئًا ظل ثابتًا متعلقًا بالغجر فذلك هو بالتأكيد أنهم وفدوا أصلًا من مصر، ذلك البلد الذي منحهم السكن والاسم، وهو البلد



الوحيد الذي استطاع فيه الغجر الحفاظ على سماتهم الفيزيقية، وعلى مهن أجدادهم. وقد اختلف الكُتاب في درجة تعصبهم لإثبات هذا الرأي. فمنهم من حاول تقديم الأدلة الواقعية وغير الواقعية على ذلك. ومنهم من نفى ذلك، وإذا كان البعض قد انتقد هذه الفكرة، إلا أنها ما زالت قائمة في أذهان كثير من الغجر وغير الغجر خارج مصر. وللوصول إلى رأي محدد بصدد هذه المسألة نحاول أن نناقش هذه الآراء في ضوء المنطق والواقع. وسنعرض كل نظرية بوضوح.

١. وجهات النظر التي تحاول الاستناد إلى شواهد واقعية:

أصحاب هذه النظرية يحاولون برهنة صحة آرائهم من خلال عرض شواهد واقعية وتاريخية، ومن خلال مناقشة بعض الأدلة اللغوية، فكلمة غجري Gypsy اعتبرت تطورًا لكلمة Egyptian ولهذا اعتبرت مصر موطنهم الأصلي في العصور الوسطى. ويرى فريق منهم أن الغجر هم أقباط مصر لإنهم اعتبروا أن كلمة Gypsy مشتقة من كلمة Copht قبطي، كما أشار كُتاب آخرون أن جماعة الغجر التي تسمى زينكالي ينتسبون إلى مصر بحكم التسمية حيث أن كلمة Chai هي تعديل لكلمة Chal التي يطلقها غجر استرمادورا على مصر. ولهذا يرون أن كلمة "كاي" يمكن أن تعني أبناء مصر.

وتوجد في اسكتلندة الآن قرية تسمى مصر الصغرى Little Egypt ويطلق على سكانها اسم (المصريين الصغار). وترجع قصة هذه القرية إلى حرب قامت بين اثنين من النبلاء الإقطاعيين فانضم الغجر إلى واحد منهم وأنقذوه من موقف يائس فكافأهم على صنيعهم بأن أقطعهم هذه القرية من أملاكه، يعيشون فيها آمنين، واستصدر لهم من أحد ملوك اسكتلندة مرسومًا ملكيًا ينص على أن تمنح هذه القرية (للمصريين الصغار) أي الغجر.

رد نبيل صبحي على هذه النظريات:

والواقع أن الكتاب الذين قرروا أن مصر هي الموطن الأصلي للغجر استندوا إلى الدليل اللغوي أو بناء على مقارنة الأسماء التي أطلقت على الجماعات الغجرية لم يحالفهم التوفيق، ولهذا ظهر الكثير من أوجه النقد لوجهات نظرهم وقد أشار قاموس الفلكلور أن الاعتقاد في أن الغجر سموا Gypsies لأنهم كانوا يعتقدون أنهم مصريون وهو اعتقاد كان منتشر في الماضي، ويرى الباحث ليلاند أن الغجر نوبيون الأصل، وأن من ساروا في نفس الاتجاه افترضوا أن الغجر هم أقباط مصر، وكلمة Gipsy مشتقة من كلمة Copht إلا أن ليلاند يعود فيقول أنه وجد بعض كلمات من اللغة الرومانية موجودة في اللغة المصرية القديمة، وهذا ما جعل هذه اللغة الغريبة



أمرًا يحتاج إلى بحث. أما من قال بأن الزينكالي ينتسبون إلى مصر فرد عليهم "بورو" حينما أثبت أن للكلمة مدلولًا آخر، فهي تعني عند الغجر الأسبان أبناء السماء، ولا تعني الكلمة بين جماعات غجرية أخرى أكثر من معنى (أطفال).

ويوجد شك في مسألة ادعاء الغجر بأنهم مصريين، فقد ذكر جوبز أن قولهم بأنهم من سلالة المصريين ليس صحيحًا، ويحتمل أن يكونوا من سلالة آرية أو هندية أو إيرانية. كما ذكر د. إبراهيم عبده أنه ليس هناك دليل على صحة هذا الاعتقاد. ويقول كيذرك على الرغم من أن جماعات الغجر التي دخلت أوروبا ذكرت أنها طُردت من مصر، فمن المشكوك أنهم كانوا يقصدون دولة مصر نفسها. ويُلاحظ أن معظم الكُتاب الذين ذكروا النشأة المصرية عادوا وأنكروا ذلك.

وخلاصة القول يمكننا أن ننتهي إلى:

1) ليس هناك حقائق تاريخية تؤيد هذه النظرية :

فالتاريخ المصري لم يسجل خروج جماعات منبوذة منه خارج البلاد. ولم يسجل التاريخ المدون عن الغجر في العالم ما تؤكده هذه الفكرة. كذلك لا يوجد في تراث الغجر إثبات سوى مجموعة من القصص المتناثرة المتضاربة. فهل يمكن أن يكون الغجر قد نسوا أصولهم وقوميتهم بعد أن خرجوا من بلد تقدس الدين والقومية؟ يصعب أن نسلم بذلك إذ يصعب أن يُمحى من ذاكرة الجماعة تمامًا كل شيء عن أصولها وتاريخها. إن جماعة اليهود ما زالت تحتفظ بتراثها. وتتمسك بتقاليدها، وتذكر أصولها، رغم تشتت اليهود في بلاد متفرقة من العالم.

2) ليست هناك أدلة وبراهين علمية تثبت أن مصر هي الوطن الأم بالنسبة للغجر:

وربما يرجع سبب انتشار هذا الرأي بين الكُتاب في وقت معين إلى وجود بعض أوجه الشبه بين العادات الشرقية وبين ما يسود لدى الغجر، مثلما حدث مع "جون ماير" الذي شاهد سحل امرأة من غجر الصرب خلف عربة، وعلق على هذا بأن هذه الأعمال الوحشية هي مثال للاتجاه الشرقي للرجال في معاملة زوجاتهم التي اشتروها وامتلكوها. وبصرف النظر عما يحمله هذا التفسير من تحتمل وتحيز ضد الشرق، فإننا يجب أن نكون حذرين في تفسير أوجه التشابه التي توجد بين الجماعات الغجرية المختلفة، فلا نتسرع في إثبات وجود علاقات بين الجماعات لمجرد تشابه الظواهر. فقد تنشأ أوجه التشابه نتيجة تشابه متطلبات البيئة، أو نتيجة انتشار الظاهرة بأي صورة من الصور، لهذا يحتاج إثبات هذه العلاقة لوجود أكثر من مجرد التشابه.

3) لا يؤكد الواقع هذه الفكرة أيضًا :



لأنه إذا كان الغجر فئة من المصريين أصلًا، فما هو تفسير وجود جماعات غجرية في مصر؟ ولماذا يعيشون حياة متميزة داخل مصر؟ ولماذا يسمون غجرًا؟. والعيب الذي وقع فيه هؤلاء الكتاب هو أنهم لم يحاولوا أن يقوموا بدرسات لغجر مصر لتقدير أوجه التشابه بين غجر مصر وغجر البلاد الأخرى أو المقارنة بين غجر مصر والمصريين أنفسهم وبينهم وبين جماعات غجرية أخرى في العالم، فقد كان في الإمكان حسم هذه المشكلة من واقع دراسات واقعية، لهذا يُحتمل أن تجيب الدراسات النظرية والميدانية الجادة في المستقبل على كثير من هذه التساؤلات.

٢. نظريات استندت على نبوات العهد القديم:

وجد بعض الكُتاب في وقائع الكتاب المقدس فرصة سانحة لتفسير أصول الغجر. ويعد أقوى داعية لهذه الفكرة هو "صموئيل روبرتز" في كتابه (الغجر: أصولهم، واستمرارهم، ومصيرهم)، ويبدأ روبرتز كتابه بمقدمة من ١٦ صفحة ينتقد فيها الكُتاب السابقين الذين قرروا أن الغجر يرجعون إلى الهند، وعلى الأخص جون هويلاند الذي قرر أن الغجر هم طبقة من السودار، التي هي أدنى طبقات الهندوس في الهند، وقد طردهم من وطنهم تيموربيج فيما بين سنة ١٤٠٨، ١٤٠٩م، وينتقد روبرتز هذا الرأي ويقول أنه في الإمكان إثبات أن الغجر كانوا في أوروبا قبل ذلك التاريخ.

ويتلخص رأي روبرتز في أن الغجر هم نسل قدماء المصريين، الذين حُكم عليهم بالتشتت في مختلف جهات الأرض أمر إلهي – ورد ذكره في الثلاث نبوات الكبار إشعيا وأرميا وحزقيال – وأنهم سوف يتجمعون مرة أخرى في موطنهم الأصلي (مصر) عن طريق المسيح المخلص ليؤمنوا بالله. ويحاول المؤلف إثبات وجهة نظره بمختلف الطرق وخاصة ما يؤيد ذلك من حياة الغجر أنفسهم. ويقول أنه لا يؤثر في صحة هذه الحقيقة التي يحاول إثباتها إذا ما كان الغجر شعب محترم أو فاسد وغير منظم، بل أنه يرى أن الغجر إذا كانوا جماعة نظامية فإن ذلك سيكون أمرًا عجيبًا، وسيصبح شيء من قبيل المعجزة كما هو الحال بالنسبة لمسألة تشتتهم ورجوعهم وتجديدهم مرة أخرى.

ويرى روبرتز أن الغجر لابد أن يحصلوا على عفو إلهي وهذا يستلزم قدر من الخضوع. وتنص النبؤة التي يستند إليها على أن الله سيجعل أرض مصر مفقرة وخربة ويشتت المصريين بين الأمم التي اتفقت على تشتيت المصريين رغم ورودها في أزمنة مختلفة، ورغم أنها أصدق دليل على أن هؤلاء هم من عنتهم النبوات. ففي خلال الخمسمائة عام الماضية والغجر يهيمون على وجوههم في بقاع الأرض وينتشرون في حقول وأراضي غالبية بلدان أوروبا، وقد أخبروا كل إنسان قابلوه عن من هم؟ ومن أين أتوا؟ لكن الناس لم تصدقهم، ويستشهد روبرتز



بأحوال الغجر اليوم للتدليل على صحة آرائه فيقول أن كونهم لا يعرفون أي شيء عن مصر (ربما نظرًا لطول فترة تشردهم خارج مصر) ولكنهم يؤكدون أنهم مصريون، وكونهم يعيشون بدون دين أو آلهة. ويتكلمون لغة واحدة لهو دليل على صدق التفسير الذي يفسر به أصولهم.

ويسوق روبرتز أمثلة وأدلة كثيرة تؤيد رأيه. ثم يتطرق إلى نوع من التأمل يرى فيه أن الله يستخدم الغجر وتشتيتهم هذا كوسيلة لتحقيق تسلسل الأحداث التي سبق ورتبها لكي تحدث. ويقول أنه إذا كان بعض الغجر اليوم لصوص، أو محتالين، أو متشردين، فإذن ذلك لا ينفي أنهم أبناء المصريين القدماء فإن ما وصل بهم إلى هذه الحالة هو ظروفهم، وما قابلهم من متاعب أثناء سنوات التشتت الطويلة.

رأي د. نبيل حنا ودحض النظرية

يذهب د. نبيل صبحي حنا إلى تسجيل الملاحظات التالية:

- إن تفسير تشرد الغجر بمقتضى الحكم الإلهي هو تفسير يستند إلى عوامل لا تتفق مع طبيعة الظواهر المدروسة. ذلك أن التفسير يقول بصدور حكم إلهي ضدهم بالتشرد، مع أن الأوضاع التاريخية والاجتماعية للغجر كجماعة تتطلب تفسيرًا بمقتضى عوامل اجتماعية تتمثل في خصائص معينة تتصف بها هذه الجماعات، وتتمثل في مجموعة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بهم، وبمن تعاملوا معهم من جماعات خلال تاريخهم الطويل تلك التي ساهمت في إيجاد الوضع الراهن لهذه الجماعات. فينبغي مثلًا أن نبحث في التاريخ متى ولماذا خرجت هذه الجماعات من وطنها الأصلي.

- يعتمد هذا الرأي على أحداث يصعب تتبعها تاريخيًا:

فالتتبع التاريخي لبني عيلام أو نسل قايين أو غيرهم، وتتبع الأحداث المرتبطة بكل جماعة أمر صعب المنال، إذ أنها تحاول الربط بين أحداث تبدأ منذ آدم إلى مجيء المسيح، وهذا التاريخ القديم غير مكتوب إطلاقًا، وكل ما هو معروف عنه بعض الأخبار الواردة في الكتب الدينية، وهذه محلها الدراسة الدينية إذ لا تعتبر حجة بالنسبة لرجل العلم الذي يبحث في مجال تخصص مثل مجال الأنثروبولوجيا.

- إن محاولة تفسير أصول الغجر إعتمادًا على ما ورد من نبوات في العهد القديم ما هي إلا محاولة – ضمن محاولات أخرى لكتاب آخرين – بحثوا في العهد القديم عن شعب حكم عليه بالتشرد، وشابهت ظروفه ظروف الغجر لكي يقرروا تعسفًا أن الغجر هم هذا الشعب الذي عنته النبوءات:



فإذا كان روبرتز قد تمسك بالنبوات التي وردت في سفر أرميا ليثبت أن الغجر هم أبناء قدماء المصريين الذين حكم عليهم بالتشتت، فلم يتردد غيره في أن يعتبر الغجر هم نسل قايين الملعون، إذ اعتبروا أن لعنة قايين بمثابة ميلاد الشعب البدوي الذي يطارده مصيره البغيض بمقتضى الحكم الإلهي الصادر ضدهم القائل: "متى عملت لا تعود، الأرض تعطيك قوتها، تائها وهاربا تكون في الأرض". ويذكرون أن الأعمال التي يشتهر بها الغجر اليوم في كل مكان، بجانب كراهيتهم المستمرة للشعوب الأخرى هي دليل على أنهم نسل قايين الملعون، وأنهم ورثوا لعنة قايين، ويحملون العلامة التي تميزهم كجنس كتب الله عليه الهلاك والعزلة، وهناك رأي ثالث يرى أن الغجر هم نسل بني عيلام حسب ما ورد نبوة أرميا أيضا، ويرى هذا الرأي أن الغجر هم الشعب الوحيد الذي ظل موجودًا ألفي سنة لكي يحقق ما جاء في النبوة، وأن العيلاميين كانوا من مواطني إيران القديمة.

يتضح لنا من مقابلة الآراء التي تقول أن الغجر هم نسل قدماء المصريين أو نسل قايين، أو نسل عيلام، أو اليهود المشتتون، الرأي السابق الإشارة إليه وهو أن كل كاتب بحث في الكتاب المقدس عن جماعة حكم عليها بالتشتت وحاول أن يقارن بينها وبين الغجر. ومن الطبيعي أنه لا يمكن أن يكون الغجر هم نسل قدماء المصريين، ونسل بني عيلام، ونسل قايين، واليهود المشتتين في نفس الوقت، وما يجعلنا نرفض هذه الآراء – بما فيها رأي روبرتز الذي يقرر أن الغجر هم نسل قدماء المصريين – هو أنها لم تستند إلى إثبات علمي أو تتبع تاريخي.

- **لم يؤيد روبرتز آراءه ووجهة نظره بأسانيد علمية :**

فلم يستند إلى شواهد علمية مؤكدة تدعم وجهة نظره، مثل الاعتماد على الشكل الخارجي أو اللغة، أو الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للغجر. فلم يحاول مثلًا التعرف على احتمال وجود شواهد وممارسات لدى جماعات غجرية تتصل بالتاريخ الفرعوني والتاريخ المصري القديم.

ويمضي نبيل صبحي حنا في مناقشة الفركرة فيقول إنه رغم أن القصص والأساطير التي تقرر النشأة المصرية للغجر قليلة، لكن نظرًا لأن بعض الكتاب قد أشاروا إلى القيمة التاريخية لهذا الجانب من التراث فإننا نجد أنه من الضروري أن نحدد طبيعة النظرة إلى المادة المتوافرة والمنهج الذي يجب علينا أن نتبعه في مجالتنا للقصص والأساطير. وبناء على ذلك ينبغي أن يأخذ أي تحليل للقصص والأساطير الخاصة بالغجر في اعتباره ما يلي:

أولًا: أن هناك قيمة تاريخية تتعلق ببعض عناصر هذا الجانب من التراث. وقد ذكر بعض العلماء في الفلكلور الغجري أننا بناء على النظرية الأنثروبولوجية لا يمكن أن نقلل من هذه القيمة، ذلك أن أنصار هذه



المدرسة يقولون إن الذاكرة الشعبية تمتاز بقوة غريبة على الاستبقاء والتذكر، وإذا لم تستطع الذاكرة الشعبية استرجاع الحقائق التاريخية استرجاع المؤرخين فإنها تحتفظ بها وتستبقيها على نحو دقيق يدعو إلى الوثوق بها.

ثانيًا: أن الأسطورة تحاول أن تضع حلًا لأشياء يستحيل حلها في الواقع، وأن توفق بين متناقضات لا يمكن بغير الطريق الأسطوري التوفيق بينهما. وعلى هذا فيتوقع أن يحتوي التراث القصصي والأسطوري للغجر على عناصر ابتدعت لحل بعض المتناقضات والمشكلات التي ارتبطت بالأوضاع التاريخية والاجتماعية للغجر في علاقتها بالشعوب التي عاشت بينها.

وعلى الرغم من تعدد الآراء حول الغجر وأصلهم المصري فيعرض الكاتب الاحتمالات التي أدت إلى ظهور تلك المعتقدات. هناك احتمالان يمكن أن يكون أحدهما هو الصحيح أو الاثنان معًا.

الاحتمال الأول: هو أن اسم مصر الفرعونية قد ارتبط بمسحة قدسية، وارتبط بالسحر والأسرار وأعمال العرافة والكهانة، وبما يتصل بالغيب والعالم الآخر. لهذا يتوقع أن يكون سكان أوروبا قد أطلقوا على الغجر هذا الاسم نظرًا لأنهم كانوا يمارسون العرافة. خاصة وأن الاسم (مصريين) كان يُطلق على كل المشعوذين والذين يقومون بالاستعراضات المسرحية المتنقلة في الطرق العامة، وذلك قبل أن يسجل رسميًا وصول الغجر إلى أوروبا في القرن الرابع.

الاحتمال الثاني: هو أن يكون الغجر قد مروا بمصر وهم في طريقهم من الهند إلى أوروبا (أي أصلهم هندي كما ذكرنا في البداية)، وفي هذه الحالة يحتمل أن يكونوا تعلموا قراءة الطالع من مصر، ثم ادعوا أنهم مصريون. ولعل ما يؤيد هذا الرأي هو أن كينريك – وهو حجة في التأريخ للغجر – يرى أنه إذا كانت اللغة والشواهد الأخرى تدل على أن غجر أوروبا ينتمون إلى جماعات تركت الهند منذ ألف سنة، فإنهم قد قضوا وقتًا قصيرًا نسبيًا في الشرق الأوسط، ويرى "ابتسون" أن لغة قبائل الغجر في مصر تشير إلى أن الهند هي الموطن الأصلي للغجر. وقد افترض ويليم جونز أن القرصنة المشهورين: السنغارز أو السنجانيانز في سينده وكوتش وكاثياوارا قد استقروا على شواطئ البحر الأحمر ومروا على مصر وهم في طريقهم إلى جنوب شرق أوروبا على أنهم زينجاني أو زينجاري وهؤلاء هم الغجر.



وهناك اعترضان علميان على هذه النظرية:

الاعتراض الأول :

في الرأي القائل أن تتبع وجود كلمات إيرانية وأمريكية في لغة الروماني مع عدم وجود كلمات قبطية أو عربية يكذب وجهة النظر التي ترى أن الغجر دخلوا أوروبا عن طريق مصر، ولكن أبتسون يرد على هذا الاعتراض بقوله: إن عدم وجود كلمات قبطية أو عربية في اللغة الرومانية لا يعني أن الغجر لم يمروا بمصر وهم في طريقهم من الهند إلى أوروبا لأنه من المعروف أن الغجر قد استقروا في آسيا الصغرى وهم في طرقهم إلى الهند، ومع ذلك فإن اللغة الرومانية لا توجد بها كلمات عربية أو سريانية أو تركية. ولهذا فهو يرجح أنه – على الرغم من عدم وجود كلمات عربية أو قبطية في اللغة الرومانية – فإن الغجر قد دخلوا أوروبا عن طريق مصر تحت اسم زيجكانوي أو أزيكاني.

الاعتراض الثاني:

فيما يذكره باتيلارد أنه هناك صعوبتان في إثبات صحة هذه النظرية. وتكمن الصعوبة الأولى في أن غجر مصر الحاليين ليس لديهم معرفة بكلمة زنغاي أو زينجاري وذلك فيما عدا حلب (وهم جماعة غجرية) وهو يفترض أنهم أتوا من اليمن، وتوضح لغتهم أنهم مروا من الهند عبر إيران وتركيا والجزيرة العربية، أما الصعوبة الثانية فهي على الرغم من أن أول اسم عرف به الغجر في أوروبا كان أزيكاني وهو يبدو ذو علاقة بالاسم زنجار فإن الاسم زينجانية أو تشينجالي معروف في تركيا وسوريا وإيران، ويُحتمل أن يكون قد عبر من آسيا الصغرى إلى اليونان، ويقول باتيلارد أنه على الرغم من هاتين الصعوبتين، وعلى الرغم من وجود بعض الشك حول هذه النظرية في عصر الإسكندر فهناك دليل يدعم هذه الفكرة، وهو أن (الزنجاري) قد استقروا على شواطئ البحر الأحمر.

ثانيًا: العلاقة بين غجر مصر وغجر العالم.

الرأي الذي يقول إنه لا توجد بين جماعات الغجر المصرية علاقة حالية مع جماعات غجر العالم باستثناء المنطقة العربية سببه عدم وجود دراسات علمية دقيقة أجريت على غجر مصر يمكن أن تصلح كمادة للمقارنة. وكل ما توفر لدى الباحثين مجرد تلميحات وردت في عبارات قصيرة مؤداها أن غجر مصر يشبهون الغجر في مناطق أخرى أو يشبهون البوهيميين. من أمثلة ذلك ما أشار إليه ليلاند إذ أشار إلى أن غجرية في مصر ذكرت له أنهم يمتون إلى غجر المجر بصلة. وبين ما يستخدمه غجر أوروبا للتعبير عن نفس الأشياء مستخدمًا قائمة



الكلمات التي جمعها نيوبولد من غجر مصر. ولهذا يعتبر الإسهام الذي قدمه سامبسون في هذا المجال أعظم مما قدمه نيوبولد الذي قام بجمع الكلمات. ويعد الاعتماد على تحليلات سامبسون اللغوية اعتماد مأمونًا نظرًا لأنه باحث جاد له دراية واسعة بلغات غجرية مختلفة.

ويقول سامسون أن ما ذكره نيوبولد (في كتابه الصادر عام ١٩٦٢م، والذي يتحدث عن مسألة أصول الغجر) بشأن لغة الغجر في مصر لم يكن إشارة عرضية سريعة إلى السمات المشتركة بين الغجر الأوروبيين والآسيويين التي يمكن أن يشير إليها أي رحالة، ولكنه تقرير أمين لحقيقة موجودة بالفعل، ويرى سامسون أن التدقيق في لغة الغجر المصريين يُوضح أنهم ينتمون إلى لغة الغجر (الروماني) الغربيين وليس الشرقيين، ولكنها ذابت في اللغة العربية، وهذه اللغة تثبت أن أصول الغجر أوروبية.

ويقول سامبسون أن قائمة كلمات نيوبولد تضمنت ثلاث فئات من الكلمات:

١. كلمات في لغة غجر مصر يؤكد شكلها وطريقة نطقها أنها أوروبية.
٢. كلمات في لغة غجر مصر تعتبر مستعارة إذ لابد أن يكون لها أصل أوروبي.
٣. كلمات في لغة غجر مصر لها مقابل في لغة الروماني الغربيين وليس الشرقيين.

ويقول سامبسون أنه بالرجوع إلى الفترة ما بين عامي ١٦٥٠ و١٧٠٠م وهي الفترة السابقة للتاريخ الذي وصف فيه نيوبولد غجر مصر عام ١٨٥٠م وهو التاريخ الذي تم فيه اضمحلال اللهجة، وغزو اللغة الشرقية لهذه اللهجة فإننا سنجد الظروف التي تفسر وجود الغجر في مصر. ففي بداية الصراع الطويل بين سوبيسكي في كل من بولندا وتركيا، سببت قوات الطوارئ المولدافية والولشية للوالي العثماني بصفة عامة هزيمة فادحة في موقعة (كوزيم) سنة ١٦٧٣م. غير أنه بعد ثلاث سنوات أحرز الأتراك بقيادة إبراهيم باشا نصرًا حاسمًا على البولنديين وحلفائهم، ووقع الإقليم كله في يديهم الأمر الذي أدى محاولتهم الانتقام بطريقتهم المعهودة، وهي الغدر بالهاربيين من الجندية. ولقد كان من بين من تم أسرهم جماعات كثيرة من الغجر الذين كانوا – كما يدلنا على ذلك ميثاق ١٣٨٧ الموجود في أرشيف بوخارست – يعملون عبيدًا في منطقة والاشيا Walachia ، وقد ظلوا هكذا حتى نهاية القرن الماضي، وليس هناك شك في أن هؤلاء المولدافيين كانوا أسلاف غجر مصر الذين وصفهم نيوبولد.

بعد الانتهاء من التحليلات التي تثبت التشابه بين كلمات غجر مصر وغجر الأوروبيين من حيث الشكل والمعنى، لابد أن نتجه إلى مدى مصدقية المعلومات التي ذكرها سامسون:



حيث أنه اعتمد بالنسبة لها على قائمة الكلمات الخاصة بنيوبولد، فيمكن القول أنه وإن كنا لا نشك في صدقها ككل إلا أنه يجب أن تؤخذ بشيء من الحذر، إذ أن الأمر يحتاج إلى إجراء دراسة ميدانية من متخصصين للتعرف عما إذا كانت هذه الكلمات مستعملة لدى غجر مصر حاليًا أم لا. فعلى ضوء هذه الدراسة يمكن تحديد مدى صدقها. ولكن يُلاحظ أنه في حالة وجود كلمات في قائمة نيوبولد لايستخدمها غجر مصر الآن، فإما أن تكون بعض كلمات قائمة نيوبولد غير صادقة، وإما أن تكون الكلمة قد اندثرت.

وهناك مايؤيد صدق بعض ما جمعه نيوبولد وحلله سامبسون: ومن أمثلة ذلك كلمة (راتي) التي تعني الليل، فهي معروفة لدى غجر مصر وتستخدم بنفس الشكل والمعنى الذي يستخدمه بها غجر أوروبا.

الباب الثالث

(الحياة الاجتماعية والثقافية للغجر)

الفصل الأول

"بعض ملامح الحياة الاجتماعية للغجر"

يتفق معظم الكُتاب على أن البداوة وعدم الاستقرار هما الطابعان اللذان يتصف بهما نمط حياة الغجر. وتتحكم الظروف الجغرافية والأوضاع الاقتصادية للدولة التي يعيشون فيها في نمط حياتهم، وقد حاول جان يورز. أن يقدم لنا تفسيرًا لهذا الطابع العام لدى الغجر، فذكر أن رغبتهم في التجوال لا تعد شهوة للتجوال. فهم يتجولون ليتقابلوا مع أقربائهم الذين لا يعرفونهم، ولكي يبحثوا عن زوجات مناسبات لأبنائهم بحيث يتم الزواج من داخل القبيلة، وفي نفس الوقت يتجنبون التزاوج من الأقارب الأقربين. وهم يعتبرون أنفسهم جزءًا من عملية انتقال ثقافي، ويرون أن بدويتهم تمثل قوة متدفقة جديدة.

في القرن السادس عشر اختلفت وتعددت وسائل الانتقال للغجر فمنهم من كان يترحل سيرًا على الأقدام ومنهم من يركبون الخيول، وأحيانا يصطحبون بعض العربات الخشبية لنقل أدواتهم الخاصة بحرفهم، ويظهر تأثير البيئة في الانتقال خاصة عند غجر بنجلاديش، فهم يستخدمون الزوارق متوسطة الحجم، ويسافرون في صورة قوافل تضم نحو عشرين زورقًا أو أكثر، ويتزعم المجموعة شخص يدعى السردار، وهو يتمتع بسلطة إدارية وقضائية، وله كلمة نافذة على كافة أفراد القافلة، فهو يحكم بينهم ويزوج الشباب والفتيات.



ويستخدم الغجر أيضًا الخيام سواء في حالة تجوالهم أو في حالة استقرارهم في بعض الأماكن. وهناك ثلاثة أنواع من الخيام: النوع الأول هو الخيمة المرتفعة ذات القيمة العالية، ويستخدمها الغجر المتنقلين، والنوع الثاني الخيمة المسطحة المنخفضة وهي مصنوعة من قماش أشرعة السفن، ويقوم الغجر المتنقلين، بطهي الطعام على النار الموقدة. ومازالت أدوات الطهي البدائية وغلايات الشاي تعلق على خطاف حديدي مثبت في الأرض.

وبصفة عامة هناك جماعات كثيرة مازالت تمارس التنقل المستمر أو التنقل في فصول معينة. وهؤلاء هم الذين لم يتمثلوا ومازالوا يؤكدون استعلاءهم القبلي. وقد فشل التمثيل السلالي، والزواج من جماعات أخرى في التقليل من أعداد الغجر الموجودين في أجزاء كثيرة من العالم رغم أنه جعل البعض يتركون قبائلهم وينسون عادتهم، فمعسكرات الغجر مازالت تشاهد في كل أوروبا وكثير من بلاد آسيا وأفريقيا وفي الأمريكتين وأستراليا.

ويرى "جون ماير" أن الغجر لديهم رغبة في الاستقرار على الرغم من أن بعض منهم مازالوا يمارسون التجوال. وقد ظهرت هذه الرغبة في الكثير من الخطابات التي يتبادلونها مع أقاربهم في جميع أنحاء العالم. غير أننا لا نتفق مع ماير في رأيه في أن الغجر لابد أن يعيشوا حياة التنقل بصفة مستمرة نظرًا لافتقارهم إلى المهارات التي تمكنهم من العمل في مجتمع منظم يفهم معنى العمل. ونظرًا لأن أعمالهم، لا يمكنها أن تتكيف لأي نوع من الحياة إلا خارج حدود القانون، وأن أرباحهم التي يحصلون عليها من السرقة والاحتيال الذي يعتمدون عليه في معيشتهم لا يمكن أن يستمر أو يزدهر إلا لفترة بسيطة في المكان الواحد، وبالتالي فهم لابد أن يعيشوا حياة التنقل بصفة مستمرة فهناك الكثير من الغجر في مصر وخارج مصر يمارسون مهنهم التقليدية في حدود القانون، بعيدون عن اللصوصية والاحتيال. وإذا كانت بعض المهن تتطلب التجوال إلا أن تطوير هذه المهن يمكن أن يؤدي إلى أن تتلاءم مع متطلبات المجتمع الحديث. فالقول أن كل الغجر يعيشون على اللصوصية والاحتيال يعد من قبيل التصورات النمطية السائدة عن الغجر في العالم بصفة عامة.

الحرف والمهن الغجرية:

يقوم الغجر بأعمال مختلفة في البلاد التي يعيشون فيها، وقد أجريت تعديلات على هذه الأعمال إلى حد ما طبقًا لطبيعة وعادات البلاد التي يعملون فيها. وقد ظلوا فترة طويلة مشهورين بأنهم موسيقيون، وقد كسب كثيرًا منهم شهرة في عزف الكمان والبيانو والرقص، وكانوا يعملون في الفنادق والمطاعم في جنوب شرق أوروبا، وفي مناطق أخرى كانت الفنادق والمطاعم تزورها فرق من الغجر ليلًا، وفي كل مكان تعمل نسائهم بالعرافة، وخاصة قراءة الكف، وكذلك اشتهر الغجر أنهم لاعبون وعازفون، وكُتاب قصص، وصناع عرائس ودُمى، وفي مناطق أخرى



يعمل الغجر في أعمال الأخشاب والملاعق ولا يزالوا يعرفون في أسكتلندة بال Maggers بناء على تجارتهم لآنية الفخار.

ويشتهر غجر شرق أوروبا بالغناء والرقص، وتحريك الدمى، والعمل في المصاغ وتجارة الخنازير والخيول، أما الغجر الذين يقطنون شبه جزية البلقان فقد تخصصوا في الأعمال الحرفية. وخاصة أعمال النحاس، كما اكتسبوا مكانة مرموقة كأساتذة في مجال الموسيقى وخاصة العزف على الكمان، وقد برز في إيران الغجر نظرًا لمهارتهم في أعمال الذهب والفضة، وفي أعمال البيطرة والفروسية، بجانب أن بعضهم حاول الدخول في مجال تجارة المواشي. ومن أهم أعمال غجر إنجلترا صناعة دبابيس الملابس وجمع الفاكهة والأعمال المتعلقة بالخيل. وفي الغالب يعمل الغجر الأجانب كحدادين، ونحَّاسين. كما يقومون بعمل السلال، والمناخل، والأمشاط، والحصير، في شبه جزيرة البلقان يعملون في تشكيل الصلصال، كما يقدمون وسائل التسلية، وفي بريطانيا يوجد غجر ملاكمون.

وقد حدث تعديلات للمهن التقليدية التي يقوم بها الغجر طبقًا لطبيعة وعادات البلاد التي يقيم فيها الغجر، ونتيجة لدرجة التحضر التي تسود البلاد التي يعيشون فيها، ففي إنجلترا مثلًا ارتبط الغجر ببعض الأعمال مثل:

- أعمال الخردة وخاصة الحديد، فكميات كبيرة من الصلب الذي يعاد تصنيعه في إنجلترا يأتي عن طريق تجار الخردة من الغجر، إذ يشترون السيارات القديمة بأثمان زهيدة ويفكونها ويبيعون الأجزاء المختلفة للتجار المختصين.
- جمع الخرق والأسمال البالية وخاصة الصوفية: ويعمل فيها كثير من النساء وقليل من الرجال.
- تعبيد الطرق والسفلتة: فقد ترتب على ازدياد استخدم السيارات في المجتمع الأوروبي قيام الغجر بتقديم خدمة سريعة ورخيصة من واقع قيامهم بهذا العمل.

وتمارس النساء أعمال متعددة ولكن أشهر هذه الأعمال العرافة ورؤية الطالع، فهي المهنة التي تشتغل بها المرأة الغجرية في معظم أنحاء العالم، وتقوم النساء بها والفتيات أيضًا، ومن أمثلة الأعمال الأخرى التي تقوم بها الغجريات في بجلاديش هي أنها تقوم في الصباح لإعداد الإفطار للعائلة في الزورق، حاملة الأقراط والخواتم على رأسها، وتحمل الحيات أيضًا في أقفاص البامبو، وتقوم بالتطبيب وبيع الأدوية.

التعليم:

مازال معظم الغجر أميين. وقد حاول بعض الكتاب عزو مشكلة أمية الغجر إلى أسباب تتعلق بالغجر وحدهم، فذكر أنجولد مثلًا أن الغجر الذين درسهم لم يتأثروا إلا بالقليل من التعليم الحديث. وهذا لاينطبق



فقط على كبار السن بل يمتد أيضًا إلى الأطفال إذ يحاول أولياء أمورهم التهرب من السلطات التعليمية فيما يتعلق بتعليم الصغار، ويبدو أن هناك كراهية موروثة، لفكرة تتبع منهج دراسة نمطي، وأن لديهم رغبة في التعليم عن طريق الخبرة وبالطرق الطبيعية، وبالتالي فالأمية منتشرة جدًا ولا يعرف معظم الغجر وغير الغجر مجرد القراءة والكتابة.

على أن مسؤلية أمية الغجر يجب أن يتحملها الغجر وغير الغجر على السواء. ففي بعض المجتمعات مثل فرنسا لايمكن لأبناء الغجر الاستمرار في المدرسة أكثر من ٤٨ ساعة وذلك لعدة أسباب:

- عدم السماح للغجر الرحل بالبقاء في مكان واحد أكثر من ٤٨ ساعة، أو بضعة أيام حينما تكون القوانين المحلية أكثر رحمة.
- عدم وجود قدرة على التكيف مع النظام في المدرسة ومع جدول تنظيم الوقت ومع الهدوء والصمت المطلوب يجعل تعليم أبناء الغجر أمرًا صعبًا

وحتى إذا حاول الغجر إلحاق أولادهم بالمدراس فإنهم يواجهون معارضة علنية ومستترة من غير الغجر، ومن المدرسين الذين يتعللون بأن عدم استقرار الغجر يجعل أية محاولة لتعليمهم مستحيلة. وقد بدأت الحكومة الإنجليزية تطلب من الغجر إرسال أطفالهم إلى المدراس الابتدائية منذ عام ١٩٠٨م وقام المهتمون بشراء هيكل أتوبيس مستعمل وجهزوه من الداخل ليستخدم كمدرسة صغيرة أقيمت بجوار عدد من الأسر التي استقرت في أحد المواقع بلندن. ويعمل بالمدرسة مدرسون متخصصون، وضعت لهم مناهج مناسبة لتعليم أبناء الغجر، كما قاموا بشراء عدد من القوافل التي تذهب إلى الغجر في المواقع المتطرفة لتعليم أبنائهم. ويقود السيارة نفس المدرس الذي يقوم بالتدريس.

السرقة:

ذكر كثير من المؤلفين الذين كتبوا عن الغجر أنهم يمارسون السرقة، وأن بعض هذه الجماعات تعتمد على السرقة اعتمادًا أساسيًا في الحصول على المال اللازم للحياة وتنظر إلى أعمال السرقة أو النصب أو الاحتيال على أنها أعمال تهدف إلى الكسب مثلها مثل أية أعمال أخرى يقوم بها الناس للحصول على ما يمكنهم من الاستمرار في البقاء. وعلى هذا لايشعر الغجري بأنه يقوم بعمل إجرامي إذ يشعر غالبًا أنه العمل الذي كتب له أن يكسب رزقه عن طريقه، وبهذا تصبح السرقة سلوكًا اجتماعيًا نمطيًا يتبعه معظم أفراد الجماعة، ويعلمونه لصغارهم لكي يتمكنوا من الاستمرار من بعدهم.

وترتبط بظاهرة السرقة والاحتيال ظاهرة تغيير أسماء الغجر، أو أن يكون للغجري أكثر من اسم. الاسم الأول معروف به داخل الجماعة والأسماء الأخرى مستعارة ينادي بها الشخص أثناء القيام بعمليات السرقة، وقد



اتفقت إحدى الجماعات على إطلاق اسم واحد هو "مرزوق" على جميع الأفراد القائمين بعملية السرقة، فكل فرد ينادي الآخر بهذا الاسم فلا يتمكن غير الغجر من التعرف عليهم.

وقد اعتاد رجال البوليس أن يكتشفوا أن الأسماء التي يذكرها الغجر عند بداية التحقيق لا تكون هي الأسماء الحقيقية، وهذا ما يتبعه محترفي الإجرام بصفة عامة، وقد ذكر الدكتور "بترفيس" ما يؤكد ذلك فقال أن الغجر لا يعتبرون الغجري سارق إلا إذا سرق ما هو ليس في حاجة إليه، أو عندما يسرق شخصًا أفقر منه، وهذا ينطبق على غجر إنجلترا بصفة أساسية ويشير أنجولد إلى فكرة الشيوعية، ويرى أن الشيوعية مَثل أعلى يلتزم به الغجر فيما يتعلق بنظرتهم للملكية، وهم يلتزمون به سلوكًا أكثر مما يتخذونه كفلسفة.

كذلك ذكرت دائرة المعارف البريطانية أنه بينما يعتبر المجتمع أن كل السرقات جرائم، فالغجر يعتبرون أن هناك درجات من استحقاق اللوم، فتعتبر قوانين غجر الصرب مَثلًا أن الجريمة هي أن يسرق الغجري ممن هو أكثر منه فقرًا.

الدين والمعتقدات:

بالغ الكُتَّاب في إصدار أحكام خاطئة عن ظاهرة الدين لدى الغجر، وعمموا على كل الجماعات الغجرية المختلفة ما ينطبق على جماعة واحدة فقط، ومن أمثلة هذه الأحكام العامة الخاطئة ما كتبه كلارك حين قال (ليس للغجر مبادئ أو دين، ولا يعبدون أي إله سوى الكذب والخداع، وليس لديهم في لغتهم كلمة تعني الله أو الخلود ومع ذلك فهم على استعداد لتبني أي دين وفقًا لما تقضيه الظروف، والغجر يأخذون من الإثارة الجنسية فرصة للتجارة، فيعملون قوادين للفسق والرغبات الجنسية على الرغم من أنهم في بعض البلاد يحافظون على عفتهم الجنسية بصرامة، ويقال أنهم يحكمون بالموت على المرأة التي تقيم أية علاقة محظورة مع أي رجل غجري أو غريب.

ويفضل غجر ترانسيلفانيا الاحتفال بعيد القديس جرين جورج الخاص بالشعوب السلافية الأوروبية الشرقية، ويتم الاحتفال به يوم ٢٣ إبريل، وكما هو الحال بالنسبة للاحتفالات الأخرى، يقطع الناس شجرة صفصاف ويزينوها بالورود والأغصان، ثم يضعونها في مكان متوسط، وتترك إحدى الحوامل ثوبها تحتها، فإذا سقطت الأورواق على الثوب في الصباح فسوف تكون ولادة هذه السيدة سهلة.

ويفهم الغجر الدين بمفاهيم مختلفة عن المفاهيم السائدة لدى غيرهم من المسيحيين فهم يعتقدون مثلًا أن الله يساعدهم على المقايضة. ويمكن أن نسمع الغجر البولنديين يرددون هذه العبارات (نرجو أن يساعدنا القديس أنطوني في سرقة الخيول! كما يوجد بين الغجر ملحدين يسخرون بفكرة الآخرة وبوجود الله، ومن عادة الغجر التظاهر بالتدين لكي يصوا إلى ما يريدون.



ويسود بين الغجر الكثير من المعتقدات التي تتعدد وتتباين بتعدد وتباين الجماعات الغجرية، فهناك اعتقاد في وجود الروح العظمى أو الروح الجيدة وهي التي تسيطر على الطقس، ويلتجأ الناس في وقت الحاجة، وهم يحترمونها ويهابونها، لكنهم لا يمكن أن يروها، وكذلك توجد روح غير نظيفة، وفي الجنازات يسير في الجنازة الكاهن أو الشخص الذي يساعد الأسرة بصفة مستمرة، ويقومون بدفن الجسم في القبر عاريًا بعد الجنازة، ويقومون بكسر الأصابع الصغيرة للميت، ويبثون به قطعة من نقود في شريط أحمر حتى يستطيع الشخص الميت أن يدفع أجرة سفره في نهر الظلام إلى بلاد الموت. ويقومون بوضع كل الأشياء العزيزة على الميت معه في القبر، بما في ذلك كمان الموسيقى، وترش البذور في القبر قبل غلقه مباشرة، وتوجد لدى الغجر بعض المفاهيم الخاصة بما بعد الحياة، فهم يعتقدون أن الناس في نهاية العالم سيهبطون إلى قاعة الجحيم، ويصل الفرد إلى هذا المكان باتباع نفس الطريق الذي تسلكه الشمس عند غروبها. وتقطع الرحلة إلى الجحيم على اثنين من الديوك، وينام الناس في الجحيم وقت شروق الشمس في السماء.

وتخلق الطقوس المتعلقة بالطهارة والنجاسة النظام داخل الجماعة وتحقق وحدة الغجر طالما أنهم يشتركون فيما يجعلهم (أطهار) في مقابل ما يأتيه غير الغجر من أفعال تعتبر في نظر الغجر نجاسة وبالتالي تقام الحواجز ضد التعامل معهم. لهذا ففكرة النجاسة تؤثر في حياة المجتمع وفي طرق سلوك الناس، إذ هي تجسد وترمز إلى أنواع من الخطر، وتعبر عن نظرة عامة إلى النظام الاجتماعي، فالخطوط الفاصلة تفرض بين الغجري وغيره، أي بين الطاهر والنجس، بين الجيد والغث، وهو ما يصبح واضحًا بفعل طقوس التجنب المترتبه على مفهوم النجاسة بمعناه القوي التأثير الذي يكمن في الكلمة marime'.

الفصل الثاني

البناء وعلاقات في جماعة غجرية

(غجر فلادلفيا – الولايات المتحدة)

يعيش في فيلادلفيا أربعة قبائل، ويتراوح عدد الأسر التي تضمها أكبر هذه القبائل بين ٢٥، ٣٠ أسرة، وهي أغنى القبائل وأكثرها تنظيمًا، وتتكون هذه القبائل من الجيل الثاني والثالث من الغجر الأمريكيين Romany American وقد ولد ملكهم الأكبر في فيلادلفيا حوالي سنة ١٨٨٠م، والغريب أن هذه المعلومة معروفة لدى الغجر، مع أن القليل منهم فقط يعرفون أين ومتى ولدوا – وحتى عندما يعرفون البلد التي ولدوا فيها، لايمكنهم إثبات أنهم ينتمون إلى مكان مولدهم، وقد ولد معظم غجر المنطقة في المعسكرات أو في الطريق، وهذا هو السبب أن الوالدين



غالبًا ما يكونوا لديهم فكرة واضحة عن مكان الميلاد أما في عشر سنوات الأخيرة فقد ولد الأطفال في المنازل التي سكنها الغجر

وتتناثر أسر غجر فلادلفيا في مناطق هامشية من المدينة، فهي تفضل الإقامة في الشوارع المزدحمة، ومع ذلك فليس هناك مجتمعا محليًا بالمعنى الجغرافي للغجر، وغالبًا ما تسكن الأسرة في الدكان، حيث يستخدمون واجهته كمحل لممارسة أعمالهم، ويستعمل بقية الدكان كمكان للمعيشة وليس لدى الغجر إحساس واضح بالإقليمية، وهذا يرجع أساسًا إلى المنافسة الاقتصادية التي تظهر عندما تأتي أسرة غجرية للسكني في مكان تعيش فيه أسرة أخرى.

ومنذ عشرات السنين حاولت السلطات المحلية تحديد إقامة غجر فلادلفيا في منطقة معينة بين نهر دلوار ونهر شيلكل، بحيث يحدهم شارعين من الشمال ومن الجنوب، وبهذا يكونون محددين في مساحة لا تزيد عن ميل دائري. وقد تم هذا التحديد بدون وجود أي قوانين تأمر بذلك، وقد تم إصدار قانون يبيح للسلطات أن تفرق بين الغجر وغيرهم عام ٧ إبريل سنة ١٩٢٧م.

اللغة:

على الرغم من أن غجر فلادلفيا في الولايات المتحدة الأمريكية يتكلمون الإنجليزية إلا أنهم يخاطبون بعضهم بلغة الرومني. ومن المعروف أن أجدادهم قد هاجروا من رومانيا، وسيبريا، وانجلترا، وروسيا ويتضح ذلك من إجاباتهم. أما أصول هؤلاء الأجداد فلا يعرفون مصدرها. ولا يعتقد الكاتب أن هذه الأصول يمكن أن تؤثر على علاقاتهم الشخصية أو الأسرية. ولا يمكن أن يستدل أي شخص على هذه الأصول إلا من خلال نطق كبار السن بعض الكلمات بطريقة مميزة، ففي هذه الحالة يفسر الغجر ذلك بأنه غجري روسي الأصل أو إنجليزي الأصل.

الأسرة:

وتعتبر الأسرة هي أكثر الوحدات الاجتماعية وضوحًا لدى غجر فلادلفيا وذلك إذا نظرنا إليها من حيث عامل القرابة والتفاعل الاجتماعي. ويستخدم مفهوم الأسرة للدلالة على الجماعة المحلية القرابية المقيمة في منزل واحد في إحدى الفترات، أو التي تنتقل في عربة واحدة، وهي ليست وحدة متكاملة على مدى الزمن. فالأعضاء الفرعيين أو الإضافيين يمكنهم أن يتركونها، وفي كل الحالات التي أقام فيها الغجر إقامة مؤقتة كان كل الضيوف أقرباء للأعضاء الدائمين.

وقد تكونت معظم الأسر عادة من زوجين متقدمين في السن، بالإضافة إلى كل أو بعض أولادهم المتزوجين وبناتهم الذين لم يتزوجوا. وقد تكون أخت أحد الزوجين غير المتزوجة عضو مقيم لعدة سنوات في الأسرة. كما يمكن أن تنضم للأسرة الابنة الأرملة أو المطلقة، سواء بأطفالهم أو بدونهم، وينضم أيضًا الابن الأرمل أو المطلق



بأبنائه أو بدونهم. ويقبل غجر فلادلفيا أن يبقى الأبناء في الأسرة ويجلبوا زوجات جدد ويقبلون أيضًا أن تبقى أخت أحد الزوجين في المنزل بصفة دائمة، ولكنها في معظم الحالات – وخاصة إذا كانت صغيرة السن وبلا أطفال – تسطيع أن تتزوج مرة أخرى.

العشيرة:

رغم أن الوحدة الأسرية هي الوحدة الأساسية، إلا أنها ليست وحدة مقصورة على ذاتها من حيث التفاعل الاجتماعي والتعاون الاقتصادي. فالعشيرة تعتبر وحدة هامة هي الأخرى. فالفرد تحيط به دائرة من الأنساب تتضمن الأشخاص الذين يتفاعلون معه، والذين يرتبط هو معهم بروابط قريبة. ولا يوجد تحديد دقيق لأعضاء هذه العشيرة، ولكنهم يختاروا من بين طبقة من المواطنين تسمى بلغة الروماني (النيامو) Nyamo، وتترجم كلمة نيامو على أنها أقارب. والنيامو هم شعب تربط بين أفراده الروابط القرابية التي مهما تكن بعيدة فهي تضم كل الأقرباء المرتبطين، والذين من عصب واحد، ولكن يجب أن نتذكر أن معظم حالات الزواج تكون محصورة بين الأفراد الذين يشتركون في قرابة الدم.

ويعتبر أفضل تعريف لهذه الدائرة من الأقرباء الذين يحيطون بالفرد هو أنها (عشيرة الشخص). فهي لا تؤلف جماعة منفصلة، ولا يستطيع أحد يصف تكونها بأنه وجود مستقل. ويستطيع الفرد أن يعرف هذه الجماعة القرابية بالرجوع إلى الفرد، وبتتبع أقربائه الذين يتعاون ويتفاعل معهم. فالعشيرة الخاصة التي يختارها ليتعاون معها في أي وقت تتوقف على طابع العلاقات الشخصية التي تسود بينهم في ذلك الوقت. ويتشاجر الناس مع بعضهم دوريًا بسبب الخلافات حول اقتراض النقود، وكمية العمل، أو الضغط لمساعدة الأطراف المتنازعة في المشاجرات المتعلقة بإعادة مهر العروس. وقد يمتنع أي شخص عن التفاعل والتعاون مع شخص آخر أثناء تجوالهما معًا في رحلة عمل قد تمتد إلى عدة أعوام. ويحدث ذلك على وجه الخصوص إذا هرب أخ أو أحد الأقارب المقربين مع إحدى الأخوات أو القريبات المقربات للآخر. لذلك فدرجة التقارب والتعاون لا تعتمد على قرب الروابط القرابية. فالعاملان اللذان يبدو أنهما يؤثران على درجة التعامل والتفاعل بين أحد الأفراد وأقاربه هما أولًا القرب الجغرافي، وثانيًا وجود أو عدم وجود مشاجرات.

الفصل الثالث

"فولكلور الغجر"

يشير مصطلح الفلكلور الرومني إلى الفولكلور الذي ابتدعه الغجر، وأيضًا إلى الفولكلور الذي ابتدعته الشعوب التي عاش الغجر بينها والذي يدور حول الغجر، ويلاحظ أن هذا الفولكلور يعتبر أكثر من الفولكلور الذي



ابتدعه الغجر أنفسهم، والغجر يعرفون السحر ويقومون بعلاج الأمراض، وعمل التعاويذ التي تحمي المنازل من الحريق، ويتنبأون بالمستقبل، ويرون الطالع. وقد اشتهروا أيضًا بمهارتهم الخاصة في التعامل مع الخيل. وعلى الرغم من أن المؤرخين كتبوا الكثير عن حياة الغجر في الألف سنة الأخيرة في أوروبا، وفي العصور المبكرة في منطقة الشرق الأوسط فإن الغجر أنفسهم لم يحاولوا أن يسجلوا شيئًا عن تاريخهم وتراثهم، والطريقة التي يمكننا بها أن نحصل على معلومات من الغجر أنفسهم هو ما يتناقل بينهم شفاهة وما يحرصون على الحفاظ عليه.

وفي الواقع إن بعض عناصر الفوكلور الغجري ترجع أصولها إلى الغجر أنفسهم، كما ترجع أصول بعض العناصر الأخرى – وهي الكثيرة – إلى الشعوب التي عاشوا بينها. على أن التراث المتوفر عن الغجر في وقتنا الحاضر يشير إلى تفوق العناصر المستعارة على العناصر الأصلية. وربما يرجع ذلك إلى طول فترة إقامة الغجر بين جماعات غريبة.

١- الأساطير:

تسود بين الغجر الكثير من الأساطير ويتعلق أغلب هذه الأساطير بنشأتهم وأصولهم وتاريخهم المبكر. فقد حاولت إحدى هذه الأساطير التي حكاها أحد الغجر المسنين أن تصور الغجر على أنهم أبناء نوح. ويقول الغجري: إن نوحا عاش بعد الطوفان مع أبنائه الثلاثة، وكان من بينهم ابنه حام، وقد لعن نوح حام بعد أن سخر منه حينما كان نوح في حالة سكر، وقال أنه سيكون عبدًا، ولهذا فنحن عبيد منذ زمن طويل. وقد عاملتنا سلالة أخوه حام بقسوة، ولكننا اكتشفنا طريقة صهر البرونز والحديد وعرفنا كيف تطرق هذه المعادن. وقد أجبرنا على العمل في وقت معين تحت ضرب السياط. وفي أحد الأيام تمردنا وطلبنا الحرية، وغزونا بلدة الكلدانيين. ولما كانت هذه البلدة صغيرة، فقد أمرنا رؤساؤنا وحكماؤنا بأن ننقسم إلى فريقين. وكان على الجماعة الأكثر شجاعة أن تغادر إلى الهند، وهي تحمل سفينة نوح وما جمعناه من الكتب المقدسة، ولكن قبل أن ننفصل تعلمت مئات القبائل فن الباترين (فن معرفة علامات الطرق). وكان هذا تنبؤ بأن الأطفال الحاليين سوف يتقابلوا مرة أخرى في المستقبل في وقت غير معروف. وبهذا هاجر نصفنا الأول إلى الهند والنصف الآخر إلى بلدة تدعى مصر.

وهناك قصة أخرى تتعلق بأصولهم أيضًا تسمى (قصة المسمار الرابع) تقول القصة أنه عندما سلم يسوع بن مريم إلى الرومان لصلبه، كلف إمبراطور روما جنديان بإحضار أربعة مسامير ضخمة. فذهب الجنود إلى الحداد اليهودي لصناعة المسامير لكن الحداد رفض فقتلوه ثم ذهبوا إلى حداد من سوريا فرفض صناعة المسامير عندما علم أنها، لصلب يسوع فقتلوه، وفي طريقهم قابلوا حداد من الغجر أخذ منهم النقود ثم بدأ في صناعة المسامير وعند البداية في المسمار الرابع علم أنها لصلب اليسوع ولكن الغجري أتم صنعه، فظل المسمار متوهجًا رغم صب



الماء عليه وأضاء الصحراء ففر الغجري هاربًا، وظل المسمار يطارده في كل مكان، ويوجد هذا المسمار في خيام كل من هم من نسل هذا الشخص.

٢- **القصص الغجري:**

القصص الغجري هو قصص أوروبي بصفة عامة بالإضافة إلى الطابع الغجري الذي يضفي على القصص. وقد قدم جروم في كتابه (في خيام الغجر) نظرية انتشار القصص الشعبية عن طريق الغجر في أوروبا. وقد قبل الكثيرون مفهوم انتقال القصص الشعبية عن طريق هؤلاء الناس. والقصص الغجري عبارة عن مزيج من العناصر المأخوذة من المجتمعات التي مرو بها.

وتدل تفاصيل ما يحدث في مناسبات معينة على أن هذا الفولكلور منحدر من الفولكلور الهندي، لهذا تتكلم قصة التنين القاتل التي ذكرها أحد الغجر عن الماس الذي وجد عند قمة جبل هذا التنين. وهذا يتفق مع المعتقد الهندي الذي يرى أنه يوجد في رأس الثعابين أحجارًا كريمة وهناك قصة أخرى ذكرها غجر رومانيا واسكتلندا تشبه قصة هيرودوت عن الملك رامبيزينتس واللص، وهناك عديد من القصص التي تتوازى عرضيًا مع الفولكلور اليوناني والبلقاني والروماني.

ويعتقد جروم أن الغجر جلبوا من الهند القصص ذات الموضوعات التي تتكرر في كثير من أنواع الفولكلور، وقد التقطوا بعض القصص الأخرى بالصدفة، ولهذا كانت النتيجة عبارة عن مزيج من العناصر الغير متجانسة. وغالبًا ما كانت هذه القصص المأخوذة تميل لأن تكون مختصرة أكثر من ميلها لأن تسرد للمستمع بطريقة مطولة. وهذا يرجع بصفة جزئية إلى عملية تسجيل القصة يمكن أن تزعج القصاص. وتوقف تدفق الكلمات.

٣- **اللغة:**

سبق أن ذكرنا أن الغجر يتكلمون لغة خاصة. والغجر يحرصون دائمًا على سرية هذه اللغة، ولهذا فهم دائمًا يتكلمون مع الغرباء اللغة العامية التي يتكلمها من يعيشون بينهم. ويلاحظ أنه يجب على دارسي لغة الغجر أن يميزو بين العناصر التكوينية وبين الإضافات الغريبة مثل الرطانة ولغة السباكين الإيرلنديين، أو لغة البلاد التي أقام فيها الغجر إقامة مؤقتة. وقد قام بعض المختصين في دراسة اللغويات بمقارنة لغة الغجر مع لغات أخرى وأثبتوا أن لغة الغجر ترجع إلى أصل هندي.

وقد قام بوت بأول دراسة علمية مضبوطة ١٧٤٤ – ١٨٤٥م، وتبعه باسباني Paspati بدراسة تفصيلية للغة الغجر الأتراك الذين يتميزون بلغة تختلف عن لغة الغجر في أي مكان آخر. كذلك قام البعض بعمل دراسات على اللغة الدراجة التي تختلف من بلد إلى آخر. وتعتبر لغة غجر بلغاريا هي أنقى لغة أوروبية دارجة، أما



الأكثر بدائية فهي لغجة غجر سوريا. وعلى الرغم من الصعوبة التي يوجهها كل دارس للغة الغجر فقد حاول البعض تحديد بعض خصائص هذه اللغة، وهي تعكس عدم اكتمالها كلغة أساسية متكاملة.

٤- الموسيقى:

ويشتهر الغجر بموسيقاهم ورقصهم في شرق وجنوب أوروبا. وفي بعض الدول لا يكاد يخلو حفل من فرق الغجر الموسيقية، والراقصات الغجريات، حيث تقوم الغجرية برؤية الطالع بين كل رقصة وأخرى. ويوافق الباحثين على أن إسهام الغجر في الموسيقى هو حفاظهم على ألوان الموسيقى الشعبية وتعديلها بما يتفق مع مهارتهم في الإيقاع. وتعتبر المجر ورومانيا وأسبانيا أهم البلاد التي أسهم الغجر في تراثها الفني. وقد أصبح الروماني في الأندلس مشهورون بسبب تطويرهم لموسيقاها. وتتباين موسيقى الغجر من النمط الكئيب المحزن إلى النمط الطروب الذي يرتبط بالرقص. ويتباين هذا الطرب والفرح من المستوى الحسي إلى مستوى المشاعر.

ولكن على الرغم مما يقال عن موسيقى الغجر، فلم يكن الغجر مبدعين، إذ أخذوا الموسيقى عن البلاد التي وجدوا فيها بما يتفق مع شخصياتهم، وأضافوا عليها بعض القوى الإبداعية. فقد توارث الغجري المتجول بكمانه وجيتاره في نهاية العصور الوسطى التراث الموسيقي القديم وفي بداية القرن الخامس عشر ابتدأت تظهر في المجر مرجع مبعثرة عن موسيقى الغجر وفي القرن السادس عشر اشتهر اسم عازف كمان غجري يدعى ديمتريوس كارمن وقد اعتاد عازفو الكمان الغجر أن يصاحبوا قادة الجيش المجري إلى الحرب، وقد اتُبعت هذه الطريقة في نهاية سنة ١٨٤٨م. وفي القرن الثامن عشر سيطر الغجر سيطرة كبيرة على الموسيقى وأصبحت الكمان أعلى الآلات منزلة.

أهمية دراسة فولكلور الغجر:

١- تؤدي بنا دراسة الثقافة الغجرية إلى التعرف على طابع حياة الغجر بعمق، كما تسهم في فهمنا الصحيح للطابع المتميز. فالجماعات الغجرية ظلت محافظة على طابعها المتميز رغم تعددها. ورغم اختلاف المجتماعات التي عاشت بينها في مختلف بلاد العالم، وقد ظلت هذه الجماعات تقاوم كل ادماج في المجتمع على الرغم من تظاهر بعض منها بالاندماج أو التمثيل. ومن شأن دراسة ثقافة الغجر أن تثري من معرفتنا بهذه الجماعات المتميزة. وتوقفنا على العوامل التي ساعدت على استمرارها في هذا الوضع المتميز.

٢- تؤدي أيضًا مثل هذه الدرسة إلى إمكانية المقارنة التي تعكس لنا ظواهر إجتماعية هامة. فيمكننا أن نقارن مثلًا بين ثقافة الغجر في مجتمع معين، والثقافة الأساسية لنفس المجتمع للوقوف على مدى التشابه والاختلاف بين العناصر التي تتضمنها كلا منهما. وبالتالي تحديد درجة تميز الغجر ثقافيًا أو درجة تمثلهم لثقافة



المجتمع، وهذا يعكس لنا بطريقة غير مباشرة طابع العلاقات السائدة بين الجماعتين، والموقف الاجتماعي والثقافي لجماعة الغجر.

٣- تسهم دراسة الفولكلور الغجري في إلقاء الضوء على تاريخ الغجر، ذلك أن قصصهم الشعبية، وأقوالهم، يمكن أن عكس لنا الفترة التاريخية التي عاشوا فيها، والأحداث والمواقف التي تعرضوا لها، والجماعات التي احتكوا بها.

٤- والفائدة من دراسة هذا المجال هو تقديم مادة صحيحة تلغي الكثير من الشائعات والأكاذيب السائدة عن الغجر، والتي ساهم في ترسيخها وتثبيتها في العقلية الشعبية الهواة الذين كتبوا عن الغجر رغبة في إشاعة الغريب عنهم.

الباب الرابع

"الغجر في مصر والبلاد العربية"

الفصل الأول

"الغجر في البلاد العربية"

يقول الدكتور مصطفى جواد أن أقدم تسمية عربية للغجر هي (الزُطّ) بضم الزاي وتشديد الطاء. ويذكر أنهم جماعة من الهند عايشت العالم العربي مرة متجندة وثالثة متعيشة.

وقد كان أول انتقال للزط إلى العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة أي في القرن السابع للميلاد. فيقال أن الحجاج أتى بقوم من زط الهند مع أهلهم وأولادهم وجاموسهم فأسكنهم بأسافل كشكر (على وزن عسكر اسم لمنطقة العراق الأوسط بين دجلة والفرات، وهي أقرب إلى الجنوب، وهي اليوم بين لواء الكوت ولواء الناصرية) فتناسلوا. غير أن قومًا شجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية. وقد كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى حصولهم على الطفيف من المسافرين في السفن. غير أن الناس في أيام المأمون تفادوا الاجتياز بهم وانقطع عن بغداد جميع من كان يحمل إليها من البصرة في السفن. ولما استخلف المعتصم تولى محاربتهم رجل من أل خراسان يقال له (عجيف بن عنبسه) وضم إليه الكثير من القواد والجند وحاربهم. وأمر عجيفًا فسكر عنهم الماء بالمؤن العظام لأنهم كانوا يعتصمون بالمستنقعات الطويلة العريضة الناتجة من التقاء دجلة والفرات وتسمى "البطائح" فلم يشذ منهم أحد، فقدم بهم إلى مدينة السلام (بغداد) في الزواريق فجعل بعضهم بخانقين وفرق سائرهم في عين زربة والثغور. ويذكر الواقدي أنه لما تم بناء عين زربا وتحصينها ثم نقل قوم من الزط الذين كانوا قد غلبوا البطائح بين واسط البصرة فانتفع أهل الثغر بهم.



وقد ذكر الخوارزمي عن طبقات الناس بالهند أن الزط هم حفاظ الطريق وهم جنس من السند يقال له جتان. ويقول المسعودي أن هؤلاء القوم قد تركوا الهند نتيجة غلاء وقع بها. وأنهم عندما نزلوا بلاد كرمان وفارس وكور الأهواز عظم أمرهم واشتد بأسهم وكانوا السبب في وجود الجاموس بالشام.

غجر العراق (عرب المستنقعات):

توجد في جنوب بابل القديمة مجموعة من المستنقعات والبحيرات الضحلة التي غمرت لمدة طويلة عدة مئات من الأميال المربعة في هذه المنطقة التي كانت أرضًا خصبة في وقت من الأوقات. في هذه المنطقة يعيش مجموعة من القبائل التي يطلق عليها مجازًا (عرب المستنقعات). هذا على الرغم من أن البدو العرب، وغيرهم من العرب مواطني البلد يرفضون الاعتراف بهم كعرب. وينكرون أي صلة قرابة بهم، ويطلقون عليهم الاسم (مادان)، وهو اسم يطلق على كل حراس جاموس الماء، وينظرون إليهم على أنهم طبقة وسلالة أدنى منهم بكثير. ولا يعتبر هذا الموقف الذي تتخذه الجماعات المختلفة منهم موقفًا جديدًا، فلم يهتم بهم المؤرخ العربي، ولم يذكروا في التاريخ العربي إلا نادرًا، ونظر إليهم دائمًا على أنهم أقل من أن يستحقوا الاهتمام. ويعيش عرب المستنقعات حياة فقيرة ويحصلون على المال من صناعة الحصير وزراعة كميات قليلة من القمح والشعير والأرز، ويعيشون في الغالب في أكواخ من الغاب أقيمت على رقعة من الأرض بحيث تطفو بالكاد فوق سطح المياه، وهم يعيشون على الأرز الذي يعتبرونه محصولهم الأساسي، وكذلك على السمك، ولبن الجاموس، والطيور المائية الموسمية التي ينصبون لها الشراك أو يصطادونها بالنار.

والواقع أن نظرة جيرانهم إليهم بشيء من الأزدراء والخوف ليست بلا سبب. فبجانب بعض السلوك السخيف الذي يصدر منهم، يعرف الناس عنهم أنهم لصوص قساة وقتلة. وقد كان عملهم الأساسي في أيام الأتراك هو القرصنة والقبض على الناس، وتهديد سفن البضائع والركاب. أما الحجاج إلى المدن المقدسة مثل كربلاء فقد كانوا يعاملونهم معاملة أفضل مثل المسؤلين الرسميين.

وعرب المستنقعات أكثر أنحناءًا وأحد نظرًا وأشحب وجهًا من بقية سكان العراق ويستقرون في معظم القرى التي تعرف بالميرزا وهم قوم لهم مسحة قدسية وفدوا من العراق منذ ما يقرب من مائة عام. وهم يشبهون الإيرانيين، لكنهم فقدوا لغتهم الأصلية وأصبحوا لا يتكلمون سوى العربية، ونادرًا ما يطلقون على أنفسهم أسماء إسلامية مثل محمد أو علي ولكنهم يسمون أنفسهم أسماء حيوانات وحشرات وجمادات.

ويُلاحظ أن الاختلاف بين جماعة المستنقعات وجيرانهم، بالإضافة إلى نظرة الدونية والاحتقار التي ينظرون بها إليهم، تعتبر كلها ذات دلالة بالنسبة لموضوع الربط بين من يعيشون في المستنقعات وبين الغجر. فهناك اتفاق بين المؤرخين على أنه كان يسكن هذه المستنقعات الواقعة ما بين وسيط والبصرة جماعة معروفة لدى العرب



باسم الزط (الغجر) وذلك في بداية العصر الإسلامي. وهناك أيضًا تقليد متوارث ثابت يقول أنه أثناء الحرب التي دارت بين "يازديجرد الثالث" آخر ملك إيراني وبين العرب الذين اعتنقوا الإسلام انضم بعض المحاربين الهنود للمشاركة في القتال مع الجيش الإيراني، ولكنهم اعتنقوا الإسلام بمجرد أن انتصر الجانب الآخير والتحقوا بعد ذلك بالجيوش العربية. ومن الثابت أن هؤلاء الهنود هم الزط الذين استقروا في المستنقعات إذ كانوا قد جاءو أصلًا من أراضي المستنقعات بالهند حيث كانوا يربون الجاموس ويعيشون بنفس الطريقة التي يحيا بها عرب المستنقعات اليوم.

الغجر في حلب:

تضمنت إحدى المقالات مقارنة بين التشيجانز (الغجر) وبين البدو. ويرى كاتب المقال أنهما ليسا شعبًا واحدًا وترجع أسباب توجيه هذه المقالة إلى المقارنة بين الغجر والبدو إلى أن هناك عددًا كبيرًا من البدو يعيشون في مدينة حلب وضواحيها في منازل صغيرة حقيرة، ويشبهون الغجر من بعض الوجوه، فهم نادرًا ما يتزوجون من خارج قبائلهم، ويتمسكون بالزي العربي. ويحافظون على الأخلاق العربية، هؤلاء يطلق عليهم (البدو). ومن أمثلة هؤلاء بدو الصحراء والقبائل الأخرى التي تقيم معسكراتها في فصل الربيع أسفل سور المدينة. ثم ينتقلون في فصل الصيف بخيامهم إلى القرى المجاورة. أما في فصل الشتاء فيتخذون من المغارات والكهوف المجاورة للبلدة مأوى لهم.

ويرى المؤلف أن التشيجاني (الغجر) يختلفون اختلافا أساسيًا عن البدو وإن كانوا هم أيضًا يعيشون بنفس الأسلوب، ويضربون بخيامهم عادة بجوار البدو، ويتكلمون العربية التي تختلط ببعض الكلمات التي يصعب على سكان سوريا فهمها، ويهاجرون أيضًا في فصل الصيف إلى القرى المجاورة ويعودون في أوائل الربيع. ويرتدون ثيابًا تشبه ثياب البدو. وتقوم نساؤهم بتلوين شفاههن وتجميل أنفسهم بارتداء الخواتم بنفس الطريقة التي تتبعها البدويات.

ويرتدي البدو الذين يعيشون في الخيام أزرقًا باليًا على هيئة قميص له أكمام واسعة، وهو مفتوح فتحة صغيرة من عند الصدر وهم يسيرون حفاة القدم في الصحراء ولكن عند ذهابهم للمدن يرتدون الأحذية.

ويرى المؤلف أنه يوجد في شمال سوريا أعداد كبيرة من الغجر الذين ينتشروا في كل أنحاء العالم، وهم يدينون بالإسلام، ويعيشون في الخيام، وأحيانًا في حفر تحت الأرض، ويشتغلون في صناعة أشياء بالية تشبه السجاد تستخدم في المنازل أو تستخدم أية استخدمات أخرى. وينظر إليهم الناس نظرة أفضل من النظرة التي ينظر بها الأهالي في المجر إلى الغجر الذين يعيشون بينهم، كما أن أوضاعهم تعد أفضل من أوضاع الغجر في إنجلترا على الرغم من أنه يظن أنهم يرجعون إلى أصول واحدة.



النَّوَر في فلسطين:

نعتبر جماعة النَّوَر في فلسطين جماعة محتقرة، إذ ينظر إليهم على أنهم أدنى طبقات المجتمع، وعندما يطلق على رجل الاسم (نَّوَري) أو امرأة فإن ذلك يتضمن وصفهما بأحقر وصف، والنَّوَر في فلسطين لهم لغة خاصة بهم على الرغم من أن جميعهم يتكلمون العربية بطلاقة، وهم عادة ما يضيفون الحرف (ك) إلى الكلمة، ويمكن تمييزهم بوضوح بسبب تلك الظاهرة. ولا يرتبط معظم غجر فلسطين بمكان معين، ذلك أنهم يعيشون في خيام مثل البدو، ويتجولون حول المدن أو القرى التي يسكنها أهالي متيسرين، وذلك بهدف ممارسة أنشطتهم وكسب عيشهم، ويعمل معظمهم في الحدادة ويُلاحظ أن الأهالي يرحبون بالنَّوَر الحدادين لإنجاز بعض أعمال الحدادة خاصة عندما لا يكون بالقرية حدادين.

ويدين نَّوَر فلسطين بالإسلام، ولكنهم لا يهتمون بالممارسات الدينية. غير أنهم يشاركون في الأعياد، ويصومون حينما يتناسب ذلك معهم. ويدفنون موتاهم في أية مدافن قريبة من مكان إقامتهم المؤقتة.

أما من حيث المظهر الفيزيقي فإن بشرتهم داكنة عن بشرة البدو، كما أنهم يتميزون بالشعر الأسود، وهم مثل البدو يتميزون بالنحافة خاصة في السن الأكبر. أما الفتيان والفتيات فهم أكثر سمنة من الكبار. وتتميز المرأة النَّوَرية بحسن المظهر. ويخضع نَّوَر فلسطين لشيخ يختارونه بأنفسهم، وهو يعتبر حاكم النَّوَر في غزة. وقد اعتبرته الحكومات قديمًا مسئولًا عن الجرائم التي تحدث، وعن دفع الضرائب، وينظر إلى النَّوَر الذين يعيشون في الخيام على أنهم بدو، ولا يخدمون بالجيش، وهم يتصفون بصفة عامة بالجبن، ومع أنهم يعيشون في الخلاء إلا أنهم لا يحملون أسلحة. ويضربون بخيامهم بجوار الأماكن الهامة في المدن، ويبدأ الرجال في نصب السندان وإشعال النار مستخدمين الفحم، وينفخون في الكور ويدقون الحديد معلنين قدومهم، أما النساء فيتجولن من بيت إلى آخر لاستجداء ما يمكنهن الحصول عليه، وقد يقمن بسرقة بعض الأشياء حينما تكون الفرصة سانحة لذلك.

وبجانب عمل المرأة الغجرية في فلسطين في العرافة وضرب الرمل والعناية بالأسرة، فهي عادة تمارس الرقص، وهي معروفة ببراعتها في هذا المجال. وهي عندما ترقص على مرأى من الناس ترتدي قميص ملون وتضع الصنوج في أطراف أصابعها، وترقص مثل راقصات الباليه الغربيات، ويصحب رقصها الرق المزود بالدفوف الصغيرة.

وينتشر بين أهالي فلسطين مثل شعبي يقول (طب زي الغجري). وذلك عندما يصل شخص في موعد غير مناسب في منتصف النهار مثلًا، ويرجع ذلك إلى أن الغجر دائمًا يغادرون المكان في منتصف النهار، ويحرصون على الوصول إلى المكان الذي يقصدونه في منتصف النهار أيضًا، أو على الأقل قبل غروب الشمس وذلك بسبب أنهم يخافون التنقل أثناء الليل لئلا يهاجمهم أحد وخاصة وأنهم لا يحملون أسلحة للدفاع عن أنفسهم.



ويعتقد نَّوَر فلسطين أنهم وفدوا من مصر، وهم يشبهون سكان مصر، ولكن لغتهم مختلفة عن اللغة المتداولة في مصر. ويطلق عليهم سكان فلسطين الزط أو النَّوَر، ويطلقون هم على أنفسهم النَّوَر أو الدوم. وهم يعتقدون في الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة، ويخافون خوفًا شديدًا من (البومة ذات القرنين) إذ يعتقدون أن لها قدرة سحرية شريرة، وأنها مغرمة بالأطفال. ويحاولون تجنب أذاها بوضع علم أبيض اللون على الخيمة ليمنع قدومها إلى الخيمة.

الغجر في دارفور (السودان):

يقول فيلكن أن منطقة دلتا النيل تذخر بأعداد كبيرة من الغجر الذين يزاولون مهنهم التقليدية مثل العمل في إصلاح الأدوات والأواني وتجارة الخيول، والعمل طباعة متجولين، أما الفتيات فتعملن راقصات. وتعمل النساء المسنات في رؤية الطالع. ويحتمل أن يكون هؤلاء الغجر قد وفدوا إلى مصر من غرب أفريقيا. ولهذا فمن الغريب أن نجد أن أعداد الغجر تتناقص كلما اتجهنا للجنوب. ويعتقد فيلكن أن دارا في دارفور تعتبر هي رأس المثلث في مسألة توزيع الغجر بينما ترتكز قاعدته في طرابلس وتشاد.

ويعمل الغجر في دارفور وكردفان في نفس المهن التي يعمل بها الغجر في القاهرة وفي أماكن أخرى كثيرة. ولكن يلاحظ أننا كلما اتجهنا إلى الجنوب كلما حاول الغجر عزل أنفسهم وتحديد المناطق التي يتجولون فيها. ويبدو أنهم يحاولون تجنب الصراعات، وعادة ما ينسحبوا إلى الأماكن الآمنة الهادئة في أوقات الفوضى أو الاضطرابات. ويشتهر الغجر في دارفور بأنهم تجار مهرة. ويقرر فيلكن أنه لم يسمع أن غجر دارفور يشتهرون بخفة اليد في القيام بأعمال السرقة. وهم يرتبطون بأهالي المنطقة بعلاقات طيبة. ويقال أنهم هم الذين أدخلوا فنون الأعمال اليدوية الخاصة بالذهب والحلي إلى دارفور. وقد اتضح أنه من المستحيل تقدير أعداد الغجر في دارفور، ويقال أن أعدادهم كبيرة في فشر، أما في دارا فقد تراوحت أعدادهم بين ثلاثين وأربعين، بينما بلغت أعدادهم في الأبيض ستين أو سبعين. وقد مر فيلكن في أثناء سفره من دارا إلى الأبيض بين قريتين غجريتين، وشاهد قافلة غجرية تتجه نحو الجنوب. ويقول أنهم يختلفون في مظهرهم اختلافًا بيِّنًا عن بقية السكان سواء العرب أو الزنوج، وقد اعتاد الغجر ارتداء الزي الوطني السائد في المنطقة فالرجال يرتدون الجلباب، وغالبًا ما يرتدون معه العمامة والتوب أو القفطان، والنساء ترتدي ملابس بسيطة عبارة عن رداء طويل أبيض أو أزرق، وتردي الثوب الذي يتدلى على الكتف بوقار.

ويطلق الأهالي في دارفور على الغجر لفظ (غجر) وهو يشمل كل فئات الغجر، ولكنهم يطلقون على العرفات Fehemi وعلى الراقصات (غوري). ويرحب الأهالي بهم في أعيادهم واحتفالاتهم، وعادة ما يكلفونهم ببعض الأعمال الغريبة. ويشتهر الغجر في أماكن أخرى بأن لديهم معلومات قوية عن الخيول والبغال والحمير والجمال، كما أن



لديهم بعض الخبرات في أعمال النجارة والبيطرة خاصة ما تعلق بعلاج الخيول، غير أن فيلكن يقرر أنه لم يشاهد أية عروض قام بها الغجر في دارفور. كما أنهلا يحتفظ بأية مذكرات خاصة بلهجتهم، غير أنه قد سمعهم يتكلمون مرة بلهجة غير معروفة. أما لغتهم العربية فهي لا تختلف عن اللهجة السودانية.

الفصل الثاني

"الغجر في مصر"

كانت هناك محاولات مبكرة لدراسة غجر مصر. وتعتبر محاولة "سيتزن" أول هذه المحاولات. ففي سنة ١٨٠٦م قدم لنا وصفًا اتسم بأنه قصير – لغجر مصر. فقد ذكر أن الغجر يوجدون في مصر وسوريا، وأنهم يوجدون في كل أنحاء المملكة العثمانية. وأشار إلى أنه قام بزيارة جماعة تقيم بخيامهم السوداء في بستان للزيتون، وقد تميز بعضهم ببشرة سوداء متسخة وشعر أسود متدلي على الجانبين في شكل ضفيرتين، وكانت شفاهم تشبه ملامح بقية المصريين. وقد وشمت النساء ذقونهن بلون أزرق قاتم، وكن يرتدين الأقراط أيضًا، وكان عمل هذه الجماعة هو صناعة المناخل من الجلد وشعر النخيل، وصناعة الأدوات الحديدية، وصناعة أباريق الشاي، وكان رجالهم شبه عرايا، ويبدو عليهم الفقر الشديد.

وفي بداية القرن العشرين صدرت عدة مقالات مهتمة بموضوع الغجر في مصر. وكان من بينها مقالة "وينستد" التي صدرت بعنوان (مشاعلية مصر) وكانت فكرة هذه المقالة تدور حول أن الرمادية والمشاعلية جماعات غجرية. وفي سنة ١٩٢٨م كتب "سامبسون" مقالة بعنوان (غجر مصر: فصل في تاريخ هجرة الغجر) وفي سنة ١٩٣٣م نشر جون ووكر مقالته القيمة بعنوان (غجر مصر الحديثة)، وأعقبتها المقالة التاريخية التي كتبها جوردون وارد بعنوان (الغجر في وادي النيل في القرن السادس عشر). بالإضافة إلى ذلك تضمنت دائرة المعارف الإسلامية بعض الفقرات التي أشارت إلى وجود الغجر في مصر، وإلى أعمالهم، كما قدمت الباحثة حكمت علي يوسف دارسة أنثروبولوجية لإحدى مستعمرات الغجر بمركز سيدي سالم (منشأة أبو علي) بمديرية كفر الشيخ. كما قام أحمد المجدوب بإجراء بحث متخصص لدراسة ظاهرة الجريمة في "طهواي" وقد ظهر حديثًا فقرة مستقلة في الدورية الفرنسية بعنوان (مصر) تضمنت بعض المعلومات المختصرة عن غجر مصر.



أولًا: مسميات الجماعات الغجرية في مصر وأعدادهم:

الاختلاف حول مصطلح الغجر:

كلمة غجر تعني كل جماعات الغجر في مصر. وقد كُتبت هذه الكلمة بعدة طرق مختلفة، على سبيل المثال كلمة "ججر" والتي كتبها فيليب وولف Gager والمفرد منها ججري. ويعتبر لين أول من ذكر الكلمة كما تذكر في العربية بطريقة صحيحة غجر ومفردها غجري، ونود أن ننوه أن كلمة غجر أكثر دقة لُغوية من كلمة ججر حيث أن الحرف G في اللغة الإنجليزية يقابله حرف ج في اللغة العربية، وعلى الرغم من وجود اتفاق بين الكُتاب على أن كلمة غجر تقابل في معناها اللغوي ومدلولها الاجتماعي كلمة Gypsies إلا أن مارتين في تعليقه على جويلان هوبر أشار إلى أنه من الصعب أن نجد في العربية مصطلحًا مقابلًا للكلمة الإنجليزية Gypsies، وافترض أن كلمة نَّوَر يمكن أن تكون أفضل من كلمة غجر لوصف هذه الجماعات. ولكن هذا الافتراض يجب أن يُرفض تمامًا فكلمة Buffoon أو نَّوَر لا يمكن أن تعطي معنى كلمة Gypsies، إذ أن كلمة Buffoon تعني مضحك أو مهرج، وهي لا تعطي نفس معنى كلمة Gypsies، بالإضافة إلى ذلك أن كلمة نَّوَر تطلق على جماعات غجرية في البلاد العربية مثل لبنان وفلسطين وسوريا، ولكنها تعني محتال أو لص لذلك فهي لا تعطي المعنى المقابل لكلمة Gypsies. ولكن في القواميس الأساسية ودوائر المعارف كلمة Gypsies تعني غجر، وهذا خطأ جسيم.

المظهر الفيزيقي للغجر:

في البداية يجب أن ننوه أنه لا يوجد دراسة علمية وافية تتناول الشكل الفيزيقي للغجر، وكتابات المؤلفين اقتصرت على إشارات مختصرة في هذا الموضوع، فقد ذكر ليلاند أن الحلب والغجر يتميزون في ملامحهم الفيزيقية عن بقية سكان مصر وخاصة شكل العينين، وتختلف ملامح نسائهم عن ملامح نساء الفلاحين والأقباط.

ووصف كريمر الشكل الفيزيقي للغجر الذين يطلقون على أنفسهم (صعايدة) بأن سماتهم هي سمات الآسيويين، فلونهم أخضر وعيونهم سوداء حادة، وشعرهم أسود، وتضع النساء الوشم على اليدين والثديين، ويلبسن أقراط من المعدن وعقود بها حبات حمراء وزرقاء. ولكن يوجد بعض الآراء المختلفة والمتعددة حول التشابه والاختلاف بين الغجر وغير الغجر في مصر، فقد ذكر لين أنه يمكن رؤية المرأة الغجرية في شوارع القاهرة، وهي تلبس نفس ملابس الطبقة الدُنيا من المصريين وتشبه النساء المصريات في ملابسهن خاصة من هذه الطبقة طبقًا لما قاله ليلاند، ولكن يمكن التمييز بينهم عن طريق الوشم.



أما بالنسبة لظاهرة الوشم فالملاحظ لغجريات مصر في هذه الأيام يجد أن هذه الظاهرة غير منتشرة بينهن بالصورة التي كانت عليها سابقًا، فبعض نساء الغجر اليوم يتميزن بوشم الصدر أو الوجه. ويتميز بعض الرجال أيضًا بوشم على أحد الساعدين أو كليهما بينما لا يتميز البعض الآخر بذلك ويرجع ذلك إلى:

1. **محاولة التوحيد أو التظاهر بالتوحيد مع المجتمع:**

فبعض الجماعات الغجرية تحاول إخفاء انتسابها إلى الغجر، وإذا كانت هذه الظاهرة قد ميزت الغجر في وقت معين، فإن محاولة التنصل من الأصل الغجري تطلبت هجر الظاهرة المميزة (الوشم). وإذا كان من الملاحظ أن بعض الغجر موشمون برسومات فقد بدأ الغجر يتشبهون بجيرانهم الريفيين الذين بدأ هجر هذه العادة.

٢. **عامل السن:**

فنلاحظ أن الوشم ينتشر بين كبار السن أكثر مما ينتشر بين الصغار، فقد بدأت الأجيال الحديثة ترى أن الوشم لم يعد ضروريًا. وساهم في ذلك انتشار التعليم بين أبناء بعض الجماعات الغجرية المستقرة، وارتباط بعضها الآخر بمهن غير غجرية واختلاطهم بغير الغجر. ولهذا نجد أن الوشم ينتشر بين الغجر غير المستقرين أكثر من الغجر المستقريين.

وكما ذكرنا سابقًا فإن الغجر يتشابهون أحيانًا مع جيرانهم في الشكل الفيزيقي، ولكن هناك جماعات من الغجر قد تختلف عن المكان الذي تعيش فيه، فمعظم جماعات "النَّوَر" الذين يعيشون في القرى يرتدون الملابس الفاخرة ويتحلون بالذهب مما يجعلهم متميزين عن أبناء القرى التي يعيشون فيها. وإذا كانت نساء النَّوَر ترتدين الجلباب الأسود مثل سائر الفلاحات إلا أنهن يغيرن هذا الزي بزي المدن في حالة الانتقال إلى المدينة لأي غرض من الأغراض. وقد ذكر أحد رجال النَّوَر (أن بناتنا تستطعن أن تعلمن بنات العالم أصول الموضة). ويرجع ذلك إلى أن معظم المستوى المادي لمعظم جماعات النَّوَر مرتفع، ومع ذلك فأحيانًا يتعمد النَّوَر في عدم الظهور بهذا التميز فيرتدون نفس الملابس التي يرتديها غير الغجر وخاصة في المناطق الريفية. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها أن أنشطهم التي يمارسونها لا تتطلب أكثر من المستوى البسيط في الملبس، بجانب أن البعض يحاول إخفاء ثرائه لكي لا يلفت النظر إليه. أما "الحلب" الذين يمارسون الاستجداء في مناطق متفرقة من صعيد مصر فهم يرتدون نفس الزي الذي يرتديه فقراء هذه المناطق، فالرجل يرتدي الجلباب، والمرأة ثوب أسود طويلًا وطرحة، ويتصفون بعدم مراعاة النظافة الشخصية، في إحدى المقابلات مع بعض جماعات الحلب أكد أحدهم أنهم لا يستحمون إلا عندما تكون الترعة مليئة بالماء.

وقبل أن نختم هذا العنصر لابد أن ننوه على أن الاعتماد على الخصائص الفيزيقية للغجر للتفرقة بين الغجر وغير الغجر في مصر هو معيار لا يمكن الاعتماد عليه وحده في أي وقت، وخاصة في هذه المرحلة الراهنة



التي لم تجر فيها دراسات علمية دقيقة. وتدل الملاحظة العامة على أن هناك اختلافات في المظهر الفيزيقي بين الجماعات الغجرية المختلفة، كما توجد تشابهات بينهم وبين جيرانهم غير الغجر سواء في الخصائص الجسمية أو في المظهر الخارجي.

ثانيًا: بداية الغجر (الأصل والتاريخ)

تعددت الآراء والأبحاث حول أصل الغجر ونشأتهم، فقد قام بعض العلماء بدراسة السمات المميزة لغجر مصر مثل "نيوبولد" وتوصلوا إلى أنهم من أصول أجنبية، وكان دليلهم على أن الغجر في مصر يعيشون متميزين ومعزولين ويتشابهون في العادات والشكل الفيزيقي، ولغتهم التي يرجع أصلها إلى الهند كذلك لغة واحدة، وهذا يدل على انتمائهم لعائلة واحدة، وأرجع نيوبولد الاختلافات الموجودة في لغة الجماعات الثلاثة الغجرية في مصر إلى طول فترة تجوالهم بعد أن تركوا الهند. واستنتج من لغة الحلب أنهم قد قضوا في اليمن وقتًا طويلًا، وكذلك في شبه الجزيرة العربية. وأن الأعداد التي تستخدمها جماعة الحلب وجماعة الغجر تؤكد أصولهم الهندية والإيرانية.

وحاول بعض الكتاب أن يتناولوا تاريخ جماعة محددة من الجماعات الغجرية الثلاثة في مصر (الغجر – الحلب – النَّوَر) ويرى بعضهم أن الجماعة التي تدعى غجرًا في مصر كانت مجرد جماعة غجرية هاجرت من القسطنطينية منذ قرن مضى أو قرنين، وقد يكون هذا التفسير صادقًا نوعًا ما بسبب أن لغتهم أقل امتزاجًا باللغة الأجنبية على عكس باقي الجماعات في وادي النيل.

أما بالنسبة للنَّوَر فيحاول البعض الربط بين نَّوَر اليوم وبين الجماعات التي تسمى لوري والتي تنتشر في إيران وفي مناطق أخرى حتى اليوم أيضًا. وقد ذكر البعض أن النَّوَر معروفون منذ القرن العاشر، إلا أنه لا يوجد دليل يربط بين نَّوَر القرن العاشر والنَّوَر الذين يعيشون بيننا. ويوجدوا اليوم في سوريا والأردن وإسرائيل وفي أماكن أخرى وقد شوهد النَّوَر يدربون القطط والدببة في أوروبا وأمريكا في القرن التاسع عشر. وفي العام الماضي عبرت إحدى هذه الجماعات شمال إفريقيا إلى فرنسا وألمانيا. وقد كان "سيتزن" أول من سجل لغة النَّوَر سنة ١٨٠٦م في ذلك الوقت كانت لغتهم تحتوي على كلمات مستعارة من اللغة العربية. غير أن قواعدها ما زالت القواعد الهندية.

أما الحلب فيرى كريمر أنهم من أصل يمني وحضر موت أي أنهم هاجروا من الغرب، وتاريخهم المبكر سُجل فيما يعرف بتاريخ الزير، وعلى حد وصف العلماء فهو تاريخ غامض وغير واف، ويقول نيوبولد أن قبائلهم قد طردت من اليمن مع اضطهاد الزير ملك جنس ال Tuba، ومارسوا التجوال في سوريا ومصر وإيران وأوروبا. وحصل السبعة أخوة رؤساء القبائل التي هاجرت إلى مصر من الملك على إعفاء من الضرائب، وعلى حق التجوال في البلاد دون مضايقات أو تحرشات. وتعتبر مقابر السبعة أخوة الرؤساء أماكن مقدسة إلى هذا اليوم، ولكن لم



توضح نتائج العمل الميداني وجود هذه المزارات المقدسة، ويقول نيوبولد في كتاباته أن اثنين من هذه المقابر تقعان في الصحراء البحرية وواحدة في القليوبية والباقي في Syud ولا يعرف هل إذا كان المقصود بهذه الكلمة أسيوط أم الصعيد. وإذا كان نيوبولد قد ذكر أن الحلب قد عجزوا عن أن يوضحوا عن سبب تسميتهم حلب أو عن أصول هذه الكلمة التي تطلق على سكان مدينة حلب أو سوريا، فقد كرر تشككه في وجود هذه العلاقة بقوله أن هذه الحالة تشبه حالة غجر فرنسا الذين اسمهم من البوهيميين، وغجر السويد والدانيمارك الذين أخذوه من التتر، ومع ذلك فإن أمر هجرتهم من هذه الأماكن موضع شك، غير أن بعضًا من غير الغجر يقرون أن الحلب وفدوا أصلًا من مدينة حلب بسوريا، ويرى فريق منهم أن الحلب وفدوا منذ أكثر من خمسمائة عام بسبب المجاعات التي كانت في سوريا، وأن الجيل الحالي هو الجيل العاشر. ويرى الفريق الآخر أن عملية حفر قناة السويس سببت عجزًا في الأيدي العاملة المصرية في مجال الزراعة مما استدعى هجرة بعض الأيدي العاملة الزراعية من سوريا.

ومع أن كلا الفريقين لا يعطي أية براهين أو أدلة تاريخية تؤيد آراءهما، فإن الرأي الثاني يبدو غير منطقي على الأطلاق، إذ يتعين لصحته أن يكون الغجر أكثر ارتباطًا بالعمل الزراعي الآن وهذا ما لا يتفق مع الواقع. أما الحلب أنفسهم فهم يؤكدون أنهم عرب بدو وأنهم ليسوا فلاحين وأن كلمة حلب قد أطلقت عليهم كمجرد لقب فقط.

غجر مصر وغجر البلاد العربية:

هناك دلائل توضح وجود علاقة بين غجر مصر والغجر في المنطقة العربية ويمكن تحسس هذه العلاقة في ثلاث نواحي :

الأولى: أن غجر المنطقة العربية كانت بينهم صلات ويرجعون إلى أصول واحدة وهو ما تظهره المادة التاريخية المتوفرة. وقد وضح ذلك من خلال عرضنا السابق للزط، ومن افتراض هجرة غجر مصر من اليمن وحضر موت. كذلك هناك من يقرر أن الغجر كانوا أولًا يعيشون في بلد تسمى السند وكان لهم ملك يدعى مارامنجو وكان له أخوان، اسم الأول رومانو والآخر سينجان، وقد ترك الغجر وطنهم الأصلي تحت تأثير الحرب والاضطهاد وبدأوا يجوبون البلاد الأخرى كفقراء، وقد أخذ كل أخ من الأخوة الثلاثة اتباعه في طريق فالبعض ذهب إلى شبه الجزيرة العربية والبعض إلى بيزنطية والبعض الآخر إلى أرمنيا وإذا سلمنا بوفود غجر مصر من شبه الجزيرة العربية، فإن هذا يؤكد الصلة بين غجر مصر وغجر البلاد العربية، وكذلك الصلة بينهم وبين غجر العالم، بالإضافة إلى ذلك فإن بعض عناصر التاريخ الغجري المكتوب والمتناقل شفاهة يوجد بنفس تفاصيله لدى الغجر المقيمين في أكثر



من بلد عربي، وعلى سبيل المثال، فإن قصة الزير سالم موجودة بنفس تفاصيلها لدى غجر مصر وغجر فلسطين.

الثانية: أن أسماء الغجر في البلاد العربية تتشابه مع تلك الأسماء الأساسية التي تطلق عليهم في مصر. في السودان يعرف الغجر بالحلب، وفي سوريا وفلسطين ولبنان بالنَّوَر، كما أن كلمة غجر كلمة معروفة في كل البلاد العربية مهما اتخذت الجماعات أسماء فرعية. حتى في لبنان التي تطلق عليهم كلمة نَّوَر نشر الكثير عنهم تحت اسم غجر.

الثالثة: أن هناك ظواهر مشتركة بين غجر مصر وغجر البلاد العربية، فالظواهر التي وصفها "فيلكن" عند غجر دارفور مثل المهن والأعمال، والملابس والرقص، والتسمية والظواهر المتعلقة بالنساء ونمو العلاقات مع غير الغجر تتشابه تمامًا مع تلك التي تسود بين كثير من الجماعات الغجرية في مصر.

ثالثًا: الجماعات الأساسية

لا توجد دراسات ولا كتابات تختص بموضوع الجماعات الأساسية للغجر ووجودهم في مصر، وكذلك لا يوجد تعريف شامل لهذه الكلمة، وهناك نوع من الخلط بين هذه الجماعات والبدو. وفي هذا العنصر يحاول الكاتب تقسيم جماعات الغجر في مصر نظرًا لما وجده من قصور في تعريف هذه الجماعات وتقسيمها في مصر وقد سبق الأشارة في العنصر السابق إلى أنواع الغجر الثلاثة في مصر (غجر – حلب – نوَّر) ولكن في هذا العنصر سيتم التحدث باستفاضة عن هذه العناصر وكذلك عرض مناقشة الكاتب لأسماء أخرى فرعية لبعض جماعات الغجر الموجود في مصر وأيضًا تعليقه عليها.

1) جماعة الغجر:

تدل الكتابات المختلفة على أن هذه الجماعة ذات سمعة غير حميدة، ويرى بعض الكُتاب أن أهم ما يميز هذه الجماعة هو النقاء اللغوي، فيرى جالتيه أن وصولهم إلى وادي النيل كان أكثر حداثة من جماعات أخرى، ويذكر أنه من المحتمل أن يكونوا أصلًا قبيلة غجرية وفدت من القسطنطينية. ويرى جالتيه أنه يمكن التعرف على سمعة هذه الجماعة من مجرد التعرف على مدلول كلمة غجر بمعنى سوقي أو وقح. وقد ذكر ليلاند أن الخديوي أخبره بوجود بعض الجماعات الغجرية في مصر يسمون الغجريين، وذكر أنه بناءًا على رأي شيخ الغجر أن الجماعات الغجرية تنقسم إلى قبائل مثل المداحين والغرادين والبرمكية وأبو تنه والحملى وبيت الرفاعي وتنتشر هذه الجماعات في مصر اليوم انتشارًا واسعًا في مناطق متعددة، وتعمل بمهن متميزة وتعيش حياة اجتماعية خاصة.



٢) **جماعة الحلب:**

تنتشر هذه الجماعة في مناطق متفرقة من مصر، ولم يجد نيوبولد تفسيرًا لهذه التسمية حتى عند الحلب أنفسهم، إذ أنهم لا يعرفون لماذا سموا بهذا الاسم الذي يطلق على سكان منطقة حلب بسوريا ويفترض البعض وجود علاقة بين هذه الجماعات وهذه المنطقة المذكورة، ويُقال أنهم كانوا يطلقون على أنفسهم اسم محلبيش Mahlebish، ومن المرجح أن هذا الاسم الأخير الذي ذكره نيوبولد هو اشتقاق أو شكل آخر لكلمة حلب، أو هو الصياغة التي صاغها الغجر لكلمة حلب إذ أنه اتبع في صياغة هذه الكلمة نفس ما يتبعه الغجر من إضافة مقدمات أو نهايات للكلمات العربية. ويذكر نيوبولد أن قبائل هذه الجماعة قد تشتت في الحبشة تحت أسماء أخرى. ويذكر أن الاسم (كوستاني) يعتبر من الأسماء التي أطلقت عليهم، وأن شيخ الحلب في مصر قد ذكر له أن هذه الجماعة تتكون من أربع قبائل وكل قبيلة تضم حوالي خمسين أسرة منتشرة في مصر.

٣) **جماعة النوَّر:**

يطلق على هذه الجماعة اسم (النور) وأحيانًا (نورة). وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن النطق الأكثر صحة هو (نوري) Nawari والجمع نوَّر، ولكن هناك بعض الآراء تقول أن نوري أصلها كلمة لوري ويعرف الغجر في إيران باسم اللور، غير أن كاترمير يرى أن الاسم (نور) مشتق من الكلمة العربية (نار) والفعل العربي (نوَّر)، كما يرى أن هذا الاسم قد أطلق على هذه الجماعة لأنهم كانوا يشاهدون وهم يحملون الجمرة والفانوس. كما يرى أن ارتباط هذا الاسم بالنار يرجع إلى أن أفراد هذه الجماعة كانوا ومازالوا يكسبون معيشتهم من العمل في الحدادة، وبما أن الغجر معروفون بأنهم لصوص في أنحاء كثيرة من العالم فقد اكتسبت كلمة (نور) معنى اللصوصية، وصارت هذه الجماعات منبوذة حتى في الأمثال الشعبية.

وتعرف بعض جماعات الغجر في مصر بأسماء أخرى غير الأسماء الثلاثة التي عادة ما تطلق على هذه الجماعات، وهناك بعض الأسماء الأخرى المحلية التي أطلقها الناس عليهم، وقد ارتبطت هذه الأسماء بأسباب وملابسات اجتماعية، وفيما يلي بعض الأسماء التي أمكن الاستدلال عليها وهي تطلق على جماعات غجرية في مصر:

- **طوايفة**: ويطلق هذا الاسم على بعض الجماعات الحلبية في قرى الصعيد ولا يعني انتساب هذه الجماعات إلى عائلة معينة، كما لا يتضمن إلا مدلول الترحال، فطوايفة تعني طوافين أو رحالة. وهذا الاسم يرتبط بحالة الترحال الدائم التي تعيشها جماعات حلبية كثيرة في صعيد مصر.

- **شهاينة**: يطلق هذا الاسم على جماعات حلبية أخرى، وهي تعني الانتماء للاسم العربي (شاهين)، وربما أطلقت بعض الجماعات هذا الاسم على نفسها لتتخلص من كلمة حلب والمعاني المرتبطة بها.



- **هجالة**: يطلق بعض أهالي الصعيد هذا اللفظ على نساء الغجر الفقيرات اللواتي يعشن في المنطقة. ويلاحظ أن هذه التسمية لا ترتبط بالغجر وحدهم إذ هي لفظ يطلق في صعيد مصر على الأرامل وعلى كل من تحترفن الاستجداء بصفة عامة، ولهذا فاننا لا نجد أن أهالي الصعيد يطلقون هذا اللفظ على الرجال الذين ينتمون إلى جماعة الغجر والذين يعيشون في مستوى معيشي مرتفع. ومن المرجح أن فقر نساء الحلب في صعيد مصر كان من أسباب إطلاق هذا اللفظ عليهن، إذ لم يطلق هذا اللفظ ليعني نساء ينتمين إلى جماعة إنثولوجية معينة والدليل على ذلك أن هؤلاء النساء يعرفن أيضًا بأنهن غجريات بجانب أنهن هجالة. وبصفة عامة يمكن القول بأن هذه التسمية ليست شائعة حتى في صعيد مصر حيث تستخدم هذه الكلمة بكثرة لتعني الأرامل.

- **قرداتية**: ذكر ليلاند أن الغجر الذين يدربون القرود يسمون (قرداتية) ويمكن القول أنه وإن كان المدرب يطلق عليه قرداتي، إلا أنه لا يجب أن تستخدم هذه الكلمة منفردة للتعبير عن الغجر، بل يجب أن تسبق بكلمة (الغجر) فتصبح (الغجر القرداتية)، والسبب في ذلك أنه ليس كل (القرداتية) غجرًا، كما أن كلمة قرداتي تصف شخصًا يقوم بمهنة معينة ولا تصفه كعضو في جماعة إثنولوجية، على نحو ما نجده في كلمة غجر .فضلًا عن ذلك فإن المعنى الذي يرتبط عند الناس بكلمة (قرداتية) لا يتضمن مفهوم الغجر.

- **تتر**: يطلق على غجر الصعيد. وقد ذكر ليلاند أنه عندما سأل امرأة غجرية عما إذا كان للغجر اسم خاص بهم ومعروف لديهم فقط، أجابت بالإيجاب، وقالت (إننا ندعو أنفسنا تتر في مصر). وأكدت الدراسات الميدانية أن بعض الأهالي يطلقون على التتر اسم حلب. ومن المرجح أنه لم يثبت انتساب (تتر) مصر إلى جماعات التتر خارج مصر التي أشار إليها ليلاند، ويمكن أن تؤدي البحوث في هذا المجال إلى تأييد وجود هذه العلاقة بين غجر مصر وبين جماعات غجرية أخرى في أوروبا، أو عدم وجودها، على أن نضع في الاعتبار أن هذا الاسم يمكن أن يكون له علاقة بالتتار.

- **صعايدة**: ذكر كريمر أن الغجر في صعيد مصر يسمون أنفسهم صعايدة، وهذا الاعتقاد خطأ فإنه من المعروف أن سكان صعيد مصر يدعون صعايدة وربما قابل كريمر أحد الصعايدة واعتبره من الغجر، أو أنه قابل غجر وأدعوا أنهم صعايدة، فالغجر يقولون على أنفسهم صعايدة وبدو وعرب وهذا تزييف منهم.

- **طهواجية**: ويطلق هذا الاسم على جماعات نور إحدى المناطق وذلك نسبة إلى طهواج التي يعتقد أنها الوطن الأصلي للأسر التي تسكن هذه المنطقة والتي تضم جمعًا غجريًا كبيرًا. وبنفس الطريقة نجد أن غجر طهواج يطلق عليهم أحيانًا (الهنجرانية) نظرًا لأنه يعتقد أنهم وفدوا أساسًا من المجر، وقد ذكر أحد الإخباريين أن الأسر النَّوَرية الموجودة في كل من محافظتي القاهرة والجيزة تعرف أحيانًا بهذا الاسم.



وللأسف فإن كل جماعة من الجماعات سالفة الذكر يطلق عليهم غجر أو حلب أو نور، وعلى الرغم من أن تقسيم غجر مصر إلى الجماعات الأساسية الثلاثة يعتبر أفضل تقسيم إلا أن هناك ملاحظتين:

١. أن هناك أوجه شبه في الخصائص العامة التي تميز كل جماعة من هذه الجماعات، كما أن هناك تداخلًا في بعض مناشط الحياة الاجتماعية لهذه الجماعات، كما توجد عوامل مشتركة تجعل من الصعب – في بعض الأحيان – التميز بين جماعة وأخرى. فبعض الغجر والحلب يقومون بأعمال السمكرة، وأعمال الثعابين، وإصلاح الأقفال، وتقوم نساؤهم بالتسول والاستجداء، ورغم اشتهار النَّوَر بالسرقة إلا أن بعضًا من أفراد الحلب يمكن أن يقوموا بالسرقة، كذلك يقوم النَّوَر ونساؤهم بأعمال أخرى مثل الأعمال التي تمارسها جماعات الحلب كبيع الكبريت وتجارة الحمير.

٢. تقسيم الغجر غير فعال في المجتمع: كمفهوم يصف جماعة غجرية تميز عن جماعة غجرية أخرى مما ترتب عليه أن تطلق مجموعة من المجتمع لفظ غجر على أفراد الجماعة الواحدة بينما تطلق عليها مجموعة ثانية النَّوَر ، ومجموعة ثالثة الحلب، وسبب عدم وضوح هذا التقسيم هو العامل الجغرافي فيمكن أن تتغير نظرة المجتمع إلى هذه الجماعات بتغير المناطق التي يعيش فيها الغجر. وعلى سبيل المثال فإن الاسم الشائع الذي تعرف به أية جماعة غجرية في الصعيد سواء كانت حلب أو غجر أو نور هو (حلب)، بينما تطلق كلمة غجر على أي جماعة غجرية في الوجه البحري. كما تطلق كلمة غجر على جماعات نوَّرَية في بعض المناطق. فنَّوَر الدقهلية والإسكندرية يعرفون بالغجر. كما يعرف غجر شبين القناطر بالغجر بينما يطلقون هم على أنفسهم لفظ غجر وحلب، على أساس أن أصلهم يرجع إلى الصعيد. وبهذا يمكن القول بأن التسمية الاجتماعية السائدة تعطي للجماعة الواحدة أكثر من مفهوم.

رابعًا: البدواة والاستقرار

تشير معظم الكتابات المبكرة إلى أن نمط التجوال هو النمط المميز لغجر مصر. فمعظم الجماعات كانت تمارس التجوال، حيث حصلت على تصريح أو ترخيص بذلك من البوليس ومن شيخ الدراويش الرفاعية وقد كتب مستر "ريكاردز" عن مرسوم صدر عام ١٨٤٧م كان له أثر على عملية تجوال الغجر في مختلف أنحاء البلاد. فقد أصدر أحد الباشوات مرسومًا استبداديًا يأمر فيه كل من لا يعيشون في قراهم الأصلية بالعودة إليها. وكانت الآثار الناجمة عن تنفيذ هذا المرسوم سيئة للغاية. فقد قاد العسكر الرجال والنساء والأطفال معًا من القاهرة إلى قرى بعيدة لا تتوفر فيها فرص للعمل، وبالتالي لم يتمكنوا من تزويد أنفسهم بالمؤن إلا بما يرد إليهم عن طريق الإحسان. ولقد أدى هذا إلى أن غادر الكثير من الغجر الأماكن المعتادة التي كانوا يعيشون فيها، إذ ربطوا خيامهم وأمتعتهم ليلًا واختفوا تمامًا.



وقد سجلت الكتابات المختلفة تجوال جماعات الغجر في الريف وفي المدن المصرية. وإذا كان ليلاند قد ذكر أنهم نادرًا ما كانوا يخاطرون بالدخول إلى المدن حتى لا يتعرضوا للإهانة والمعاملة السيئة من الناس، إلا أن كريمر ذكر أنهم يتجولون بخيامهم حول الأراضي الزرراعية في الصيف، ويلجأون إلى الحدود في فترة الشتاء، فهم كانوا يوجدون بجوار مدينة القاهرة في مواسم معينة خلال فترة الربيع والشتاء، والمكان المفضل لإقامتهم لعدة سنوات كان طريق شبرا – القاهرة. كما ذكر نيوبولد أن مكان إقامتهم كان قرية بعينها على يمين الطريق من القاهرة إلى شبرا. كما سجل أيضًا نيوبولد تواجدهم في المدن، فأوضح أنهم يعيشون في مكان قذر يطلق عليه (حوش الغجر) خلف جامع الحسين الشهير تحت صخرة القلعة، وفي مصر القديمة بجوار جامع عمرو بن العاص.

توزيع التجمعات الغجرية في مصر اليوم :

يعيش الغجر في مصر اليوم في شكل تجمعات حيث يضم كل تجمع عددًا من الأسر. وهناك بعض الأسر الغجرية التي تعيش حياة مستقلة، وتتباين أعداد الغجر في كل تجمع تباينًا شديدًا، فهناك التجمعات الكبيرة التي تضم مئات الأسر، وهناك التجمعات المتوسطة تضم عشرات الأسر، وهناك تجمعات صغيرة تتراوح فيها الأسر بين أسرتين وعشرات الأسر. ففي إحدى القرى يعيش ما يزيد عن ٥٠٠ نوَّرَي في شكل تجمع يضم عدد كبير من الأسر. ويسكن نوَّرَ هذه القرية في منطقة يفصل بينهما وبين بقية المنطقة السكنية شارع رئيسي، وتسمى المنطقة التي تضم تجمع غجري (عزبة الغجر). كما يقطن شبين القناطر ما يقرب من خمسين أسرة غجرية، بخلاف الغجر القاطنين بالقرى التابعة، وهم يقطنون منطقة وسط المدينة وتسمى "النعناعية". أما مركز طَمِّية بالفيوم فيضم عددًا صغيًرا من الأسر يتراوح بين سبع وثماني أسر تربط بينهم روابط قرابية ويعيشون في شارع واحد. وبالمثل فإن التجمعات الموجودة في المحلة الكبرى وبياهمو وسنورس بالفيوم وقرية بني غني بالمنيا تضم كلها تجمعات تقترب من العشرة أسر. وهناك قرى كثيرة تضم أسرة أو أسرتين على الأكثر مثل قرية "طمبضي"و "آبة الوقف" بمغاغة، وعزبة الأهالي بالقناطر الخيرية ومنطقة جامع المرادني بالفيوم.

تقسيم الجماعات السابقة إلى مستقرة وغير مستقرة:

الجماعات المستقرة:

تعتبر جماعة "غجر طمية" السابق الإشارة إليها نموذجًا لجماعات غجرية مستقرة من الجماعات في مصر، إذ يقيم أفراد هذه الجماعة إقامة دائمة وهم مسجلون بالسجل المدني على الرغم من أن مواطني المنطقة ينظرون إليهم على أنهم غجر. كما تعتبر جماعة غجر قرية "الروبيات" جماعة مستقرة أيضًا إذ أنهم اختاروا هذه القرية كمستقر أساسي لهم وذلك لوقوعها في وقع متوسط بين خمس قرى، والعودة إلى الروبيات بسهولة. وتقع منازلهم في هذه القرية في منطقة فسيحة ليست بعيدة تمامًا عن مساكن الأهالي، ومن الأمثلة الأخرى أيضًا أسر



حلبية كثيرة استقرت في صعيد مصر. فغجر وحلب الصعيد يتكلمون جميعًا عن الحلب تجار الجمال الذين استقروا في مدينة المنيا ويعيشون حياة مستقرة محققين قدرًا كبيرًا من التكامل مع المجتمع. ويعيش في قرية (آبة الوقف) في مغاغة عدد من الأسر الحلبية معيشة مستقرة وتقطن منازل تقع بين منازل أهالي القرية، كما تعيش في قرية (بني غني) بالمنيا بصفة دائمة سبع أسر حلبية على قطعة أرض منحها لهم عمدة القرية.

أما عن التجمع النوَّرَي الكبير في الدقهلية فيعد نموذجًا للجماعات النوَّرَية المستقرة. فقد استقرت هذه الجماعات بهذه القرية منذ أكثر من مائتي عام، فمعظم الأجيال الحالية مولودة في القرية. وقد كان الغجر في القناطر الخيرية يقيمون قديمًا في خيام بجوار كوبري القناطر إلا أنهم استقروا بصفة دائمة في إحدى العزب على بعد كيلو مترين من وسط المدينة. ويتكون النور في هذه العزبة من عائلة كبيرة ممتدة تضم عددًا من الأسر الزواجية، ويضم التجمع كله حوالي عشرين فردًا يعيشون في منزل واحد كبير في طرف القرية .

ويعيش في قرية أخرى بالفيوم تجمع آخر مستقر يضم خمس أسر نورية تعيش كل أسرة منها في منزل مستقل مبني من الطوب الأحمر. وتوجد هذه المنازل عند مدخل القرية على أول الطريق الزراعي الموصل من هذا المدخل إلى منازل الأهالي والممتد بين الحقول. وقد كانت إحدى هذه الأسر تقيم وسط هذه القرية، إلا أنها انتقلت إلى خارج القرية بجوار بقية منازل النَّوَر بعد حدوث مشاجرات بين أفرادها وبين أهالي القرية. ويعيش في القرية المُقابلة لهذه القرية ثلاث أسر نَّوَرية أخرى لها صلة قرابة بأسر القرية الأولى. ويبلغ تعداد الغجر في هاتين القريتين حوالي ٤٨ فردًا ويعتبر تجمعًا واحدًا فيما يتعلق بنمط المعيشة بسبب روابط القرابة.

ومن الأسباب التي ساعدت على استقرار هذه الجماعات بالقرية سماح السلطة في القرية لهم بالاستقرار. ويتوقف استقرارهم في القرى على رضى العمدة، فقد استقر الغجر في إحدى القرى لفترة طويلة، غير أنه بعد وفاة العمدة حذر الأهالي ابنه الذي أصبح عمدة من بعده من التساهل مع الغجر خشية حدوث أية متاعب منهم الأمر الذي ترتب عليه أن قام العمدة الجديد بطردهم من القرية وحرمانهم من المرور بها.

وقد تحايلت جماعات نَّوَرية على عمد بعض القرى فحاولت إقناعهم أنهم جماعة من الناس تنتمي إلى عائلات كبرى في مناطق أخرى. فمنهم من قال إنهم (الصقاروة) الذين يتبعون عائلة الصقر، أو (الشهابيون) الذين يتبعون عائلة شهاب وأنهم مهاجرون ويودون الاستقرار في القرية، وبعد ما سمح لهم بالاستقرار اتضح بعد ذلك أنهم نَّوَر.

وفي الغالب يعيش الغجر المستقرون في مساكن تتناسب مع المنطقة التي يعيشون فيها ومع مستواهم المادي. فبعضهم يملك المسكن الذي يعيش فيه، والبعض الآخر يستأجره، كما أن بعض هذه المساكن مشيدة من الطوب اللبن، والبعض الآخر من الطوب الأحمر. والظاهرة المميزة للغجر بصفة عامة هي الميل للسكني في أطراف



القرى، فإن هذه الظاهرة تظهر بصورة واضحة لدى النور. ولعل السبب في ذلك هو عدم رغبتهم في الاختلاط بالأهالي، وإلى إبعاد النظر عن أنشطتهم وتحركاتهم، وهذا ما ذكرناه من قبل عن الغجر الواقعين على طريق القاهرة – شبرا.

الهجرة والحراك المكاني بالنسبة للجماعات المستقرة:

لقد ذكرت د/ حكمت يوسف في دراستها لمستعمرة الغجر بالشرقية أن الجماعة التي تعيش في هذه المنطقة وفدت من أماكن متفرقة بالقطر المصري وبصفة خاصة من مديرية كفر الشيخ والمديريات الغربية، وهناك عدد كبير من الغجر الذين يقيمون بصفة دائمة في محافظة الجيزة وفدوا أساسًا من محافظتي المنيا وبني سويف، وعلى الأخص محافظة بني سويف، وغجر شبين القناطر إلى مركزي بني مزار ومطاي. كما أن غجر سنورس بالفيوم لم يستقروا فيها إلا منذ عام ١٩٥١م.

وقد أكدت دراسة د/ أحمد المجدوب عن مجتمع (النَّوَر) في طهواي (طهواج) على انتشار ظاهرة الحراك بين الجماعات النورية. فقد هاجرت من البلد منذ فترة طويلة بعض الأسر مكونه أماكن بكل من:

- قرية الراهبين – مركز سمنود، وبوريج – مركز قطور، شفاقرون – مركز بسيون – محافظة الغربية.
- مدينة كفر الدوار – محافظة البحيرة.
- حي دمنه وغربال بمدينة الإسكندرية.

وذلك بقصد إقامة أوكار جديدة لإخفاء متحصلات جرائمهم أو اختفاء المطلوبين منهم عن عين السلطات ووجود مراكز تجمع جديدة في أماكن متفرقة تسهل لهم نشاطهم في مساحات أوسع وأبعد عن مكان توطنهم وشهرتهم الإجرامية.

الجماعات المتنقلة وشبه المستقرة:

هناك تجمعات كثيرة من غجر مصر مازالت تعيش حياة التنقل الدائم. ويتركز وجود هذه الجماعات في القرى المصرية، إذ أنها تجوب القرى بحثًا عن الرزق. وينتشر هذا النمط على وجه الخصوص في الوجه القبلي بين الجماعات الحلبية التي تنتشر في صعيد مصر، والتي تمارس الاستجداء كمهنة أساسية. غير أن هناك جماعات كثيرة تمارس التجوال أيضًا في الوجه البحري. وتنتمي الجماعات المتجولة بصفة خاصة إلى جماعة الحلب وجماعة الغجر، ومن أمثلة هذه الجماعات جماعة غجرية بالفيوم تمت مقابلتها في قرية الروبيات تضم سبع أسر يتراوح عدد أفراد كل أسرة بين سبعة وثمانية أفراد. وعلى الرغم من أن كل أسرة تحيا حياة شبه مستقلة إلا هناك نوعا من التعاون يتطلبه التنقل المشترك والظروف الواحدة التي يواجهونها، فهم يشعرون أنهم عائلة واحدة، وتحدد دائرة التجوال بالنسبة لبعض هذه الجماعات في حدود قرى مركز واحد. وهناك جماعات أخرى تتعدى حدود



المركز لتتجول بين عدة مراكز داخل المحافظة الواحدة. ففي محافظة الجيزة وجدت أسر غجرية اتخذت دائرة تجوالها ابتداء من محافظة سوهاج حتى الجيزة. وهي تستجدي من القرى المختلفة وتستقر لفترة معينة في بعض القرى خاصة في فترات الحصاد أو في مناسبات الموالد. غير أن الملاحظة الميدانية لم تكشف عن أية جماعات غجرية تعيش في صعيد مصر وصلت في تجوالها إلى الوجه البحري، ولا عن جماعات تعيش في الوجه البحري وصلت في تجوالها إلى قرى الوجه القبلي.

وهناك جماعات شبه مستقرة تمارس التنقل الموسمي، ويطلق على القرى التي تمر بها هذه الأسر (قرى العبور) حيث يقضي الغجر في مداخلها ليلة أو ليلتين ثم يغادرونها إلى المكان الذي يقصدونه. وتختلف قرى العبور في هذه الحالة عن القرى التي يقضون فيها فترة طويلة بهدف العمل أو الاشتراك في الموالد فأهالي قرى العبور لا يختلطون بالغجر عادة.

خامسًا: جماعات شبه غجرية

١. الغوازي:

تعددت الآراء في مسألة انتساب هذه القبيلة إلى الغجر. فقد ذكر كريمر أنها كثيرة العدد وأن نساءها ينتشرون في كل مدينة وقرية كبرى. وأنهن متمرسات في فنون الأغراء لدرجة أن هناك خطرًا على الناس من جمالهن، وتعني كلمة غازي (باللغة العربية) الشخص الذي يكافح من أجل الإيمان أو غازي الكفار. غير أن هذا الاسم يستخدم اليوم بمعنى مخالف، فيقول بورتون أن بعضًا ممن يعتبرون حجة في الموضوع يرون أن الغجر المصريين قد أخذوا هذا الاسم ليشبعوا رغبتهم في التعظيم والتفخيم. وأن هذا الاسم يعني باللغة الإيرانية راقصة شعبية.

و لا يتوفر لدينا وصف شامل للحياة الاجتماعية لهذه الجماعات خاصة وأن الوصف الذي قدمه لين للغوازي قد انصب أساسًا على وصف عملية الرقص مع بعض التنويهات إلى جوانب أخرى من حياتهم. كذلك فإنه لم يقم بدراستهم كجماعة غجرية. وكل ما لدينا هو بعض الإشارات المتفرقة إلى بعض الظواهر المرتبطة بهم، فقد ذكر كريمر أن أفراد هذه القبائل يعيشون حياة بدوية حيث يقيمون في الخيام ويتواجدون في الأسواق .

ويطلق الغوازي على أنفسهم اسم (البرمكية) ويقولون أنهم ينتسبون إلى عائلة برمكية التي كانت تشغل المناصب العليا لدى الخلفاء، وقام الخليفة هارون الرشيد بالقضاء عليهم. ويقال إن هذا المصطلح يرجع إلى أصل إيراني فبرمكي تعني سقا. ويقال أيضًا أن هذه الكلمة هي التي نطق بها جعفر البرمكي عندما تسبب خاتمه الممتلىء بالسم في وقوع الحجارة على ذراع الخليفة الأموي عبد الملك، فابتدأ يثرثر بالخرافة العامة والشعبية. كما يحتمل أن تكون هذه الأسرة منتمية إلى قبيلة غجرية معروفة في إيران. ويرى ابن خلكان أن الجد الأكبر كان هو رئيس أو



مؤسس جماعة من الرهبان في بلخ في دير يسمى (نان بوهار) أي الربيع الصغير وتعني الدير الجديد بالسنسكريتية.

٢. المشاعلية:

يرى د. فينز أن هناك وجهًا للمقارنة بين الغجر وبين جماعة وجدت بمصر تسمى "المشاعلية". وعلى الرغم من أن بعض الكُتاب قد ذكروا هؤلاء المشاعلية في كتاباتهم إلا أنهم لم يقدموا لنا الكثير عنهم إذ ذكروا أن هذه القبائل كانت تحترف المهن المحتقرة وكانوا يدفعون نسبة معينة للضرائب، كما كانوا يمارسون أشق الأعمال المخيفة. وعندما كان يصدر حكم المحكمة على المجرم بأن يجر في الشوارع وأن يثبت جسمه بمسامير على لوح خشبي يحمله جمل، كانت المشاعلية تمشي أمامه وهي تصيح (هذا هو العقاب العادل لمن يثور ضد إرادة السلطان). كما كان المشاعلية يحترفون مهنة المنادين العموميين. فقد كانوا مكلفين في بعض الأحوال بأن يجوبوا المدينة أثناء الليل وأن ينادوا بصوت عال على السكان لكي يخرجوا من منازلهم قبل طلوع النهار. وعند إبرام اتفاقية سلام كان عليهم أن يعلنوا ذلك في كافة أحياء المدينة.

ويرى فينز أن الأعمال التي يمارسها المشاعلية تشبه تلك التي يمارسها البوهيميون (جماعات غجرية) ولهذا فهو يعتقد أن كلا الأسمين (المشاعلية) و(البوهيمين)، إسمان يصفا نوعية واحدة من الأشخاص على مستوى إجتماعي واحد. ويرى أن العلاقة بين المشاعلية والغجر تكمن في أن كلمة مشاعلية مشتقة من (مشعل) وهو يرتبط بالنَّوَر أو النار.

٣. السماعنة أو السماعنية:

تعيش في مصر جماعة تعدادها حوالي ٣٠٠ فردًا يطلق عليها هذا الاسم تتمثل في مجموعة من الأسر التي تربط بينهما روابط قرابية. وقد قرر بعض الأهالي المحيطين بهم أن هذه الجماعة تعتبر غجرًا. ويقال إنه أطلق على هذه الجماعة اسم (سماعنة) أو (سمعانية) لأنهم وفدوا من بلدة السمعانية بجهة فاقوس محافظة الشرقية حيث يوجد أكبر تجمع (للسماعنة)، ويذكر الأهالي أن أصول هذه القبيلة ترجع أصلًا إلى إحدى القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية. وبعد أن تركزت هذه القبيلة في إحدى المناطق بمصر حاولت الدولة أن تمنحهم إحدى الأراضي في مقابل أن تحصل منهم على ضريبة مما أدى إلى هجرتهم من هذه المنطقة إلى مناطق متفرقة من مصر، كما هرب بعضهم إلى الشام. وقد زاول بعض ممن تفرقوا في مصر أنواعًا مختلفة من التجارة مثل تجارة الألومنيوم، كما عمل بعضهم في الزراعة والشتل وعمل البعض الآخر بالغناء والتسول. وقد تزوج بعضهم من بنات تلك المناطق.

٤. الرمادية :



يقـول فينـر: وجـدت هـذه القبيلـة في مصـر في عصـر الفـاطميين، وكـان رجالهـا يمارسـون نفـس أعمـال البوهيميين، كما كان لهم نفس مظهرهم. وقد شوهدوا في شوارع العاصمة وهم يلونون وجوههم بألوان متعددة ويقومون بكل أنواع التهريج والأحاديث الفاضحة القبيحة. وقد كانت هذه الحركات تؤدي إلى أن يصل المشاهدون إلى أقصى درجات السرور.

ويذكر أيضًا أنه لم يجد بين القبائل العربية من يحمل اسم (الرمادية) فمن ثم فالرمادية جزء من ذلك الشعب الغجري المتميز وذلك لأن أعمال التهريج التي يقومون بها هي إحدى المهن التي يمارسها البوهيميون، ويمكن القـول أن فينر في رأيـه هـذا والـذي يحـاول فيـه الـربط بـين المشـاعلية أو الرماديـة وبـين الغجـر يماثـل تلـك الآراء العديدة التي تقرن بين الغجر وبين جماعات أخرى (خاصة في مجال دراسة أصول الغجر بصفة عامة)، وهو لم يقدم لنا دليًلا قويًا يمكن الاستناد إليه. فالاستناد إلى فكرة ارتباط كلمة النَّوَر وكلمة المشاعلية بالنور أو النار لـيس دلـيلًا كافيًـا، كمـا أن المقارنـة بـين المشـاعلية والرماديـة وبـين الجماعـات الغجريـة التي تسـمى البـوهيميين لا تستند إلا إلى التشابه المهني وهذا ليس كافيًا.

سادسًا: الحرف والأعمال

يتضمن التراث المُدون عن جماعات الغجر في مصر بعض التقارير عن المهن والأعمال التي يمارسونها. فقد أشار سيتزن إلى أنهم كانوا يعملون في صناعة المناخل من شعر الخيل ومن الجلود، وعمل المسامير الحديدية الصـغيرة، وأصـلاح الغلايـات والأبـاريق. ويـذكر كريمـر أن الغجـر يعملـون بالسـمكرة، وتركيـب الحـداء للحمير، والـرقص الشـعبي، ويعملـون حـواه للثعـابين. وتعمـل نسـاءهم في السـحر ورؤيـة الطـالع، ويعملـون بتجـارة الخيـول والحمير الصغيرة، ويذهبون للتجارة في القاهرة ويتواجدون مرتين في العام بطنطا، وفي المولد الكبير الذي يقام في العيد السنوي للشلقاني (مولد الشلقاني) في شهر مايو.

وعلى الرغم من أنهم يكسبون مالًا وفيرًا إلا أن الأغنياء فيهم قليلون. وبينما يعمل بعض من أفراد القبيلة في التجـارة يعـيش الـبعض الآخـر منهـا في القـاهرة ويعملـون في اسـتخراج الثعـابين مـن البيـوت وهـؤلاء يسـمون (بالرفاعيـة) وهي فئـة تتظـاهر بـأن لـديها القـدرة على شـم الثعـابين واسـتخراجها مـن الشـقوق في البيـوت. وطريقـة الرفاعي هم أن يضرب بعصا في يده عدة ضربات على الأرض أو على الباب، ثم يعزف قطعة موسيقية على الآلة التي يحملها فتظهر الثعابين.

ويقوم كثير من الغجر أيضًا بتدريب القرود، وخاصة من يسكنون منهم منطقة الأزبكية كما يقدمون أشكالًا مختلفة من الألعاب كالمصارعة، وأعمال البهلوانات، ولهذا يأتون إلى القاهرة في أعداد كبيرة في عيد الأضحى، كذلك ذكر نيوبولد أن الغجر يمارسون أعمال السمكرة والحدادة، وبيع الأقراط والأحجبة والأساور والأدوات الحديدية



والنحاسية، وخاصة الذين يسكنون منطقة (حوش الغجر) التي تقع خلف جامع الحسن الكبير أسفل القلعة بمحافظة القاهرة.

أما نساء الغجر فهم عادة ما يشاهدون في الدكاكين والموالد التي تقام بالمدن الكبرى وهن سافرات الوجه وقد زين وجوههن لون برونزي، كما أنهن يجلن من قرية إلى أخرى وهن يرددن عبارات (تعالى يالي عايز تشوف بختك)، وقد وصف ليلاند كيف تقوم المرأة الغجرية في الصعيد بالتنبؤ ورؤية الطالع. فهي تحمل بعض الأصداف في حقيبة جلدية على كتفها، وتتنبأ من خلال الطريقة التي يتجمع بها الأصداف، وتعيش هذه النساء في منطقة (حوش بردق) الذي يقع تحت القلعة في مواجهة جامع السلطان حسن. وينافس هؤلاء جماعة المغاربة المنجمون والعرافون الذين أتوا من داخل أفريقيا وخاصة من دارفور. ويمكن رؤيتهم جالسين على جانبي الطريق يحاولون التنبؤ عن طريق الكوتشينة والرمل.

سوف نتناول هنا الحرف والمهن التي تقوم بها كل جماعة غجرية على حدة، ثم نورد بعض المناقشات الضرورية.

يقوم بعض رجال الغجر بكي الحمير والجمال، ويقوم البعض الآخر – خاصة في الفيوم – باصطياد الثعابين لبيعها إلى كليات الطب وسلاح الصاعقة أو بعض الجهات الأخرى. وقد قيدت هذه المهنة في بعض البطاقات الشخصية أو العائلية التي يحملها الغجر تحت اسم (صياد حشرات). ويعتبر الغجر هذه المهنة من المهن المقبولة في المجتمع مثلها مثل أي مهنة أخرى. ويعمل البعض الآخر في استخراج الثعابين من منازل الفلاحين. فالغجري يدعي بأن قدرة على إخراج الثعابين المخبأة في شقوق حوائط المنازل عن طريق التعزيم عليها. وهناك من يرى أن هذه القدرة موروثة، إذ ذكر أحدهم بأنه ورثها عن جده السابع، وأن جده قد أخذ عليه عهدًا بألا يسلمها إلى غيره.

وهذه القدرة تتضمن القدرة على شم رائحة الثعبان إذا كان في المنزل وفي نفس الوقت استخراجه مهما كان الثعبان عاصيًا. وللغجري الذي يعمل في هذه المهنة قرى معروفة يمر بها دوريًا وتدعوه الفلاحات لتطهير المنازل من الثعابين. ومن الطبيعي أن هذه المهنة مرتبطة بالتواجد أو على الأقل ممارسة المهنة في مجتمع قروي. على أن هناك بعضًا ممن يصطادون الثعابين يقومون بتدريبهم وجمع المال ممن يشاهدونهم أثناء اللعب بالثعابين.

ويعمل بعض غجر طمية في بيع العطارة، كما أن بعضهم يتاجرون في الردة والملح. ويقوم البعض الآخر بأعمال حرفية مثل عمل البرادع وإصلاح مواقد الكيروسين (بوابير الغاز) أو الكوالين أو الغناء على الربابة في مقابل المال، والبعض من الرجال يستجدي.



وتمارس النساء أعمالًا متعددة فهن راقصات شعبيات. وتعمل الكثيرات منهن في ضرب الودع ورؤية الطالع أو العلاج الشعبي. وعلى سبيل المثال تدعى الغجرية أن سبب الصداع وجود دود في أذن المريض، وهي تعالجه بما لديها من قدرة على استخراج الدود من الأذن. كما تقوم بعض الغجريات ببيع الكحل والخيط والصابون، كما تمارس أخريات عملية الوشم وتمارس نساء الغجر أيضًا الاستجداء بصور متعددة. فمنهن من يستجدين بطريقة مباشرة ومنهن من يستجدين بطريقة غير مباشرة عن طريق الغناء على أبواب المنازل أو إرضاع أطفال غير الغجر مدعيات أن ذلك يطيل عمر الطفل.

أما الحلب الذين يوجدون في صعيد مصر فمنهم من يقومون بأعمال التجارة. فأغنياؤهم يتاجرون في الجمال والبقر والعجول، أما الأقل ثراء فيتاجرون في الأغنام والحمير، وهم متخصصون في إخفاء عيب الحمير وبيعها على أنها سليمة تمامًا، كما يمارسون تصليح الأقفال والأبواب والصناديق في القرى والأسواق، ورغم كل هذه المهن إلى أن الاستجداء هو الظاهرة الأساسية التي يشتهرون بها والتي يقوم بها الرجال والنساء على السواء. غير أن هذه المهنة تعتبر عملًا خاصًا بالنساء بصفة أساسية. ومن المظاهر المألوفة في صعيد مصر ركوب الحلبية حمار يتدلى من على جانبية خرجان تضع فيهما الحبوب والغلال والطعام الذي تجمعه.

وهناك أسر حلبية تعتمد على استجداء المرأة كمصدر وحيد للدخل، ويلاحظ أن النساء يخرجن في الصباح للتسول بينما يظل الرجل في البيت ينتظر عودتها بالنقود والمؤن. وقد عبرت إحدى الغجريات عن اعتماد الأسرة على ما تأتي به من مؤن بقولها: (إحنا إن ما سرحناش ما ناكلش)، وينتشر بين بعض جماعات الحلب أن الرجل يفرض على المرأة حد معين من الغلال لا تعود إلا بعد أن تجمعه. ويفتخر الرجل إذا عادت الزوجة بنصف أردب من الغلال، ويعاشر أكثر زوجاته جمعًا للغلال.

ويشير التراث المتوافر عن أعمال النَّوَر أن هذه الجماعة قد اشتهرت بالسرقة بطرق متنوعة. ويحاول النور إخفاء نشاطهم الأساسي بالتظاهر بالانشغال في أي عمل تجاري أو بيع بعض الأدوات البسيطة، وقد أدى ارتباط هذا الاسم بهذه الجماعة إلى أن اكتسب هذا الاسم معنى اللصوصية والاحتيال في اللغة العربية، فلفظ (نَّوَري) يعني لص أو محتال حتى لو أطلق على أي شخص من غير الغجر.

ويعد كريمر الكاتب الوحيد الذي ذكر أن النَّوَر يعملون صياغًا حيث قال: (إن الغجر المتجولين الذين يعملون كصياغ يسمون نور) غير أن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة غير معروف.

وفي الدراسة السابق الإشارة إليها التي أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية والتي نشرت تحت عنوان (دراسة لظاهرة الجريمة في قرية طهواي) أشار الدكتور أحمد المجدوب إلى أن الأحصاءات أبرزت ارتفاع نسبة جرائم السرقة التي أبلغت للشرطة في محافظة الدقهلية وبعض المحافظات المجاورة دون أن يتم التعرف



على مرتكبيها، مما جعل رجال الشرطة بها يعترفون بأنهم أوشكوا أن يعلنوا عجزهم عن مواجهة الموقف بالغ التعقيد الناشئ عن وجود من يسمون بالغجر الذين يرتكبون جرائم السرقة حيث يتخذون من السرقة حرفة لهم، وقد أجادوا هذه الحرفة إلى حد جعل ضبطهم من الصعوبة بمكان .

وهناك بعض الملاحظات التي نود أن نبديها في مجال مهن الغجر :

١. أن هناك تداخلًا بين المهن والحرف التي يقوم بها الغجر وتلك التي يقوم بها الحلب. وقد وضح ذلك من العرض السابق لمهن الجماعتين وقد كان ذلك عاملًا أساسيا من عوامل الخلط بين جماعة الغجر وجماعة الحلب.

٢. الظاهرة الشائعة بين الغجر هو عدم الرغبة في الارتباط بأعمال حكومية. وحتى أن هؤلاء الذين هاجروا المهن الغجرية التقليدية حاولوا الارتباط بمهن حرة معظمها لها الطابع التجاري، وربما يكون ذلك بسبب إدراكهم للفائدة المرتبطة بهذه المهن. وتبدو هذه الظاهرة واضحة حتى مع من أمضوا فترة الخدمة العسكرية وحاولت الحكومة توظيفهم، إذ رفض بعضهم الوظيفة.

٣. على الرغم من شيوع انتشار المهنة الواحدة بين أفراد الأسرة الوادة لدى الغجر غير أنه قد وجدت نماذج للتنوع المهني داخل الأسرة الواحدة، ففي إحدى الأسر الغجرية بالفيوم كان أحد الأشخاص يحترف الغناء والضرب على الرق في حفلات الزواج بينما يعمل أخوه عربجيًا.

٤. إذا كانت ظاهرة السرقة مرتبطة بالنَّوَر بصفة خاصة إلا أن المفهوم الاجتماعي السائد، عن الغجر بصفة عامة يتضمن أن تصور الناس للغجر يرتبط بالسرقة ولو بدرجات متفاوتة. فبعض الناس يشعرن أن الحلبية يمكن أن تسرق دجاجة من حواري القرية إذ وافقتها الفرصة.

